التصنيع والتحديث الثقافي في المجتمع العربي

عصام الزعيم

في التصنيع : مقدمة

يحطم التصنيع بمنطقه الذاتي التكنولوجي الانماط التنظيمية والعلاقات الاجتماعية الخاصة بالنشاطات الانتاجية التقليدية وما ولدت من ايديولوجية . وبينما تأخذ العلاقات العشائرية ونظام المشاع الانتاجي في الأرياف والاقاليم المتاخمة للبادية مضمونا شبه اقطاعي في اعقاب الصدمة التي يحدثها الاستعمار التقليدي (الكولونيالية) في المجتمع ، يظهر التصنيع مطمحا وشاغلا عاماً بعد نيل الاستقلال السياسي ، ويسرع في الارياف تفكك الروابط الاجتماعية بين شيخ العشيرة وافراد قبيلته او آغا القرية وفلاحيه الذين ينفصلون تدريجياً عنه . ويصح هذا القول على الانتاج المادي مثلما يصح على الصعيد الاجتماعي ، حيث تسود التبعية المتبادلة ذات المراتب الاجتماعية : interdépendance sociale hiérarchisée .

لكن البنى الفوقية التي تتمثل بالقيم العشائرية والعائلية والدينية الموروثة

من الماضي تتمكن خلال فترة طويلة من عرقلة النتائج الاقتصادية والاجتماعية ـ التنظيمية للتصنيع الزراعي ، سيما عندما يكون النضال الايديولوجي والسياسي والثقافي بهدف التجديد والثورة ضعيفاً .

وفي المدينة حيث تدخل الصناعة وتتعصر الحياة اليومية ووسائل البقاء وعادات الاستهلاك ، يختفي تدريجيا البيت العربي الكبير الذي يؤوي العائلة بمفهومها الاسلامي الواسع (ضاماً الاخوة على تعددهم وبنيهم وأحياناً احفادهم) ، تحت الضغط الاقتصادي وبتأثير القيم الاجتماعية الجديدة ، لتحل محله الاسر المصغرة في الشقق الحديثة التجارية . ونلمس بهذا الواقع ظاهرة سوسيولوجية نجد تبريرها في تكاثر الوظائف الادارية والتعليمية والمهن الحرة اكثر مما نجده في منطق التصنيع . وتعزز السلطات الحكومية هذا التبدل في الاسرة والمسكن عندما تضع سياسة اسكانية في نطاق سياستها الاجتماعية .

بيد ان قوة المحافظة والاستمرار الداخلية وهي قوة من البنى الفوقية (كالتشريع التقليدي رغم تطعيمه المتوالي ، والقيم المتوارثة) تقاوم كما نلاحظ في الاقطار العربية المتعددة ، تأثير الانماط التنظيمية وعلاقات الانتاج والسياسة الخاصة بالصناعة الحديثة مؤقلمة اياها مع الواقع الاجتماعي . ولكي ندلل على هذه الظاهرة نستشهد باشكالها المتطرفة الصارخة : استزلام الانصار والمحاسيب للبطانة الطفيلية المهيمنة على الشعب بجمعها بين الزعامة الدينية والعشائرية التقليدية والدور الاقتصادي الاستغلالي الجشع في لبنان ، ودور « وحدة الحال » الطائفية او الاقليمية او القومية في اضعاف الشعور الطبقي لدى الفلاحين والعمال .

في العواصم والمدن الكبرى والمراكز الاقتصادية الحديثة الظهور وبالأخص (المرافىء البحرية والمراكز الصناعية التي تنبثق عن المخططات الصناعية والبنى

الاقتصادية التحتية للاقطار العربية) تتوالد وتنمو انمــاط جديدة من التنظيم والعلاقات الاجتماعية نظراً لأن المجتمع التقليدي ما قبل الرأسمالي يتلقى اعنف ضربات التحدي الصناعي، وأولها في نقاط تحاكه مع العالم الحديث، وبالاخص الرأسمالي، التي تشكلها هذه القطاعات منه . اما القطاعات التقليدية للتجارة الحرفية الصغيرة (في اسواق المدينة القديمــة) فتبقى احياناً كثروة بنأى عن الانقلاب الصناعي باستثناء ان الحرف النسيجية الصغيرة تتقلص كجلد الحزن في رواية بلزاك وتتجدد، بينما تقوم صناعة كبرى حديثة تشكل مركزاً لتجمع اعداد كبيرة نسبياً من العمال وتجسد علاقات رأسمالية بين العمال والرأسماليين ، فتظهر النقـابات لتعلن الرفض الطبقي بينما تتكاثر اشكال الانتاج الرأسمالي .

بيد ان هذه القطاعات الحديثة تبقى بالحقيقة جيوباً منعزلة في المجتمعات التقليدية، قامت وتقوم تطبيقاً لقسمة العمل الدولية في معادلتها الاخيرة : التصنيع الشامل الثقيل والاكثر تقدماً من الناحية التكنولوجية للبلدان الرأسمالية الامبريالية والتصنيع الجزئي والخفيف ما امكن للبلدان التابعة في جو السعي المحموم لوقف تقلص المجال الحيوي للرأسمالية الامبرياليـة والتشبث بالموارد والأسواق والحيلولة دون تحرر البلدان التابعة .

ان التبصر في اشكالية التحديث Ia problématique de modernisation يستوجب منا أن نعرض هنا الوجــه الآخر من ميدالية التصنيع العربي ونعني الستراتيجية الصناعية الرأسمالية المعرقلة له :

اولا : تجنح الشركات الرأسمالية المتعــددة الجنسية multinationales بشكل بات ملحوظاً لتصبح النموذج السائد للهيمنة الرأسمالية الدولية . وتتداخل استراتيجيتها اكثر فأكثر مع استراتيجية الدول الامبريالية بجوانبها الاقتصادية

والديبلوماسية والعسكرية . ان قسمة العمل على صعيد النظامين المتحدين للرأسمالية الامبريالية وللمجتمعات الخاضعة للاستعمار الجديد ، تقوم، كما من قبل، على منطق الرأسمالية الذاتي عينه ، منطق استغلال الانسان في ركض محموم وراء الربح . ويظهر مشروع هذه الشركات العالمي الابعاد للتمركز فيزيائياً على الصعيد العالمي على حقيقته محاولة لحل التناقضات الداخلية للمجتمعات الرأسمالية الصناعية، أي التناقضات بين قواها المنتجة المتنامية وعلاقاتها الاجتماعية الرأسمالية الاحتكارية . كما يشكل هذا المشروع نوعاً من الهروب إلى الأمام من النزاع الحيوي والمحتم بين الاحتكارات (سواء البسيطة Monopoles او متعددة الأقطاب Oligopoles) الصناعية والمالية .

ويترتب على هذا التناقض الداخلي تحوير في السياسة الصناعية لهذه المؤسسات ولدولها الامبريالية يقوم على شكل جديد لقسمة العمل الرأسمالية في هذا الاطار الدولي الثنائي . فوفقاً لهذه القسمة تخص المجتمعات الكولونيالية — المحضرمة Néo - coloniales ، ومنها بالأفضلية تلك التي اعطاها الاستعمار ابعاداً اقليمية وسكانية وبنيوية اقتصادية او اجتماعية سياسية لا عقلانية irrationnelles (وفي الوطن العربي تتعدد الامثلة عليها) ، بوظيفة صناعة شاقولية downstream / en aval (ولكن جزئية كما سنرى) ، تبلغ الصناعات التحويلية ذات الأهمية الستراتيجية الضئيلة ، ان اقتصادياً أم عسكرياً . واساس الاختيار وسببه يكمنان في هذه العوائق البنيوية التي تقدم ضمانات عالية من التبعية المستقرة. وهذا هو الشيء الجديد من قسمة العمل الرأسمالية الدولية . اما الصناعات الثقيلة والطليعية فتظل ، بسبب من تكنولوجيتها الطليعية المتجددة وماليتها الجبارة ووزنها الحاسم في الرأسمالية ،

حكرة للبلدان الامبريالية مما يؤكد احتفاظ هذه القسمة الدولية للعمل بمضمونها الرأسمالي التسلطي .

ثانيا : ان ممارسة هذه السياسة الصناعية الجديدة تتم في ظل نوعين من الضمانات ، فمن جهة تتحكم الشركات متعددة الجنسية في تمويل الاستثمارات الصناعية غاية واسلوباً، تحكماً مباشراً، او عبر التزاوج المصرفي الصناعي، او عبر الحكومات الغربية التي تربط بين هذه الشركات وبين البنوك الدولية ، او حتى بفضل التبادل غير المتكافىء والأساليب الأخرى التي تضع فيض القيمة المأخوذ من الأقطار العربية المصدرة للنفط مثلا تحت تصرف هذه الشركات . أما الضمانة الثانية وهي الأهم ، فهي تملك بل احتكار اقوى مؤسسات الرأسمالية العالمية احدث آلات الانتاج والمصانع ووظائف البحث بشكليه الأساسي **fondamentale** والتطبيقي **Appliquée** والتكنولوجيا وطرائق الانتاج الصناعي والتهالك على ملكيتها واستثمارها . وبالتحديد فان العوامل الخارجية المصدر **Facteurs exogènes** تحدد إذن بهذا الأسلوب سير عملية التصنيع التي تطلقها المجتمعات الكولونيالية المخضرمة عندما تبدأ الحرب على تبعيتها للامبريالية . وبالواقع فليس ما عرضنا هنا سوى شرح اضافي وجديد لقانون التطور غير المتكافىء الخاص بالرأسمالية مطبقاً على جملة المجتمعين الرأسمالي الامبريالي والتابع الساعي للتحرر .

ثالثا : تلجأ الاقطار العربية بصورة مضطردة الى طلب المعونات الخارجية لحل ما يعترضها من مشكلات تكنولوجية واخرى متعلقة بتسيير الانتاج . وثمة علاقة متبادلة بين سرقة الدول الامبريالية ، ولا سيما الولايات المتحدة و كندا والمانيا الاتحادية واوروبا الغربية بصفة عامة، للعقول والخبرات العربية ، وقلة تنقل الخبرات الفنية والعلمية بين الاقطار العربية .

وتتمايز هذه المعونات الاجنبية وتتناقض فيما بينهـــا من حيث مصدرها . فالمعونات الفنية التي تقدمها البلدان الاشتراكية ـ وان كان ذكر هذه الحقيقة الموضوعية يؤرق الرجعيين ـ ترفد الجهود الوطنية العربيـة الرامية الى تعزيز الطاقات الاقتصادية والتغلب على عوائق الافلات من طوق الرأسمالية الامبريالية والتبعية الاقتصادية، وتمثل شكلاً من الاشكال المتنامية للصراع بين الرأسمالية وما يرتبط بها من استغلال وعدوان ، والاشتراكية وما توفر من عدل وسلام . وهي لذلك تكون خلال مرحلة التصنيع الاولى في الاقطار العربية السالكة طريق التحرر الاقتصادي ذات استراتيجية مرحلية الطبيعة يتوقف نجاحها على مقدار التقدم في تعميم علاقات انتاجية مؤاتية ، اي اشتراكية محلياً ، بقدر ما تتوقف على درجة تضاعف هذه المعونات كما وتنوعها وشمولها القطاعي وحسن الافادة منها . ومضمون الاستراتيجية هو تفجير نمو عال في القوى المنتجة واستغلال الموارد الطبيعية بما يقرب هذه الاقطار من وضعية الاعتماد الذاتي المستند الى تراكم رأسمالي وتكنولوجي كاف ، وعلاقات تجارية خارجية من قسمة العمل الجديـدة تعزز السيادة وتعقلن الاختيارات الاقتصادية . هذه المعونات الاشتراكية توسع دائرة التحديث الصناعي والفكري توسيعاً كبيراً لأنها تشمل قطاعات اقتصادية مختلفة وملاكات انتاجيـة تمتد من العمال والنقابيين مروراً بالفلاحين وحتى المهندسين والباحثين ، فتزيل عن التحديث صفته الطبقية النخبوية ملتقية في ذلك مـع التوسع الديموقراطي للتعليم الثانوي والفني الجامعي . ويساعد تكوين الملاكات الفنية في الاقطار العربية نفسها وفي ميادين الانتاج ذاتها خلال انشاء الصناعات الجديدة على دعم الجانب الكمي من المعونة الفنية والعلمية الاشتراكية .

ما هو بالمقابل تأثير المعونات الفنية الغربية على سير عملية التحديث الفكري

والصناعي ؟ قلنا ان المعونات الاشتراكية والرأسمالية تتمايز فيما بينها وتتناقض من حيث دورها وغرضها ونتائجها

تحتل التكنولوجيا مكاناً مرموقاً لم تحظ به من قبل في استراتيجية الهيمنة الامبريالية على البلدان الاخرى ، اذ تقوم الرأسمالية الاحتكارية بمضاعفة عمليات التراكم وتشديد تمركز الخبرات التكنولوجية في نضالها لوقف تقلص مجالها الحيوي واجهاض مشاريع التصنيع الوطني المستقل للاقطار المناضلة في سبيل تحررها . وتشكل التكنولوجيا المتقدمة والمتجددة مصدر قوة للشركات الرأسمالية الهندسية، إنْ في اميركا الشمالية واوربا الغربية او اليابان، حيث تستخدمها سلاحاً رادعاً ووسيلة ضاغطة للتدخل عن كثب والتغلغل المالي في مشاريع التصنيع الثقيل ولا سيما البتروكيميائي في الوطن العربي . ويمكن القول ان الاستراتيجية التكنولوجية للامبريالية هي السهر على تشديد التفاوت بين القدرات التكنولوجية والصناعية ووتائرها في كل من البلدان الرأسمالية الصناعية والاخرى ؛ واستخدام هذا التفاوت لضبط اتجاهات التصنيع الوطني في البلدان الساعية للتحرر واخضاعها لمصالحها العالمية ، مستفيدة من اسبقيتها التاريخية على المجتمعات الاشتراكية ، ولا سيما في ميادين البتروكيمياء والالكترونيك والادمغة الالكترونية ، هذه الاسبقية التي تجعل اللجوء اليها اضطرارياً في المرحلة الحالية. وجدير بنا ان نبين هنا ان الشركات الاميركية الشمالية تحتل مركزاً قيادياً في شبكة الشركات التكنولوجية الدولية. وتضيف الشركات الغربية متعددة الجنسية Multinationales ذات القاعدة الاميركية او الاوروبية الى هذه الاستراتيجية التكنولوجية، استراتيجية تجارية تقوم على الطبيعة الاحتكارية متعددة الاقطاب Oligopolistiques لبنية التجارة الرأسمالية للنفط والبتروكيمياء وايضاً للفولاذ . وهي تجارة تمس التصنيع العربي

بالذات ، فتستخدم سلطتها التجارية ايضاً سلاحاً رادعاً ثانياً ووسيلة ضاغطة للتغلغل في المشاريع الصناعية العربية وتحديد استراتيجيات تجارية لها تضمن خضوعها لاسواقها الاحتكارية بكل تناقضاتها وتقلباتها .

يمكننا التمييز بين شكلين من المعونة الرأسمالية الغربية (الاميركية او الاوروبية) واليابانية :

آ – معونات التصميم الهندسي والطرائق الصناعية Engineering حيث تبيع شركات الهندسة الصناعية المتخصصة اجهزة وطرائق انتاجية Procédés لا تهدد تفوق الرأسمالية الصناعية الغربية واليابانية وتصديراتها الصناعية ، وبأسعار باهظة تجعل هذا البيع جزءاً من التبادل غير المتكافىء الذي تسرق الدول الرأسمالية الصناعية في اطاره الاقطار العربية وجملة البلدان التابعة المناضلة في سبيل تحررها الاقتصادي . ولا بد لنا من الاقرار هنا بأن تنمية الصناعات البتروكيميائية في الوطن العربي مرهونة في المرحلة الحالية بشراء اجهزة التصميم الصناعي وطرائقه .

ب – تأجير الخبرة : ان تأجير الخـــبرة الصناعية الفنية شكل مهم من اشكال المعونة الرأسمالية ولا سيما الغربية . وعلى عكس مايبدو لأول وهلة ، فإن هذا التأجير لا يقتصر على تطبيق الشركات والدول الرأسمالية المبدأ الاقتصادي « الندرة طبيعية وكل ما هو نادر اذن غال » بالمفهوم البورجوازي الذي يخفي الطابع المصطنع لهذه الندرة وعلته الحقيقية في طبيعة النظام الرأسمالي ، وبالذات في علاقاته الانتاجية والاجتماعية اللاجمة لنمو القوى المنتجة . فهذا التأجير لا يشكل فقط وسيلة لابتزاز المال من الاقطار العربية المستعينة بهذه الملاكات الأجنبية وانما يستخدم لغرضين هامين :

١ ـ تصدير مشكلة الملاكات الفنية كجزء من مشكلة نمو قوى الانتاج في المجتمعات الرأسمالية لتخفيف ازمتها عاماً تلو الآخر ، بتأمين العمل وبشروط مغرية لهذه الملاكات الصناعية الفنية في الاقطار العربية .

٢ ـ استخدام هذا التأجير كوسيلة لجر عملية التصنيع الوطني في المجتمع العربي المستأجر في فلك صناعات البلد الرأسمالي المؤجر وصادراتها وتأييد تبعيته التجهيزية والصناعية للمتروبول الرأسمالي سواء أكان قديماً كفرنسا أو بديلا كالولايات المتحدة . وهكذا تشكل الخبرة الاجنبية الفنية عاملا تسويقياً يسهل التصدير ، وهو ضرورة أكثر حيوية للرأسمالية العالمية اليوم من اي وقت مضى .

٣ ـ استخدام هذا التأجير كوسيلة لمقاومة التحديث الثقافي والتعليمي العربي وسنأتي على هذه النقطة عند التطرق لعقبات التأقلم المتبادل بين التصنيع والتحديث الثقافي في سياق هذه الدراسة .

ان مواصلة الاعتماد على الخبرة التعليمية والتكنولوجية الغربية لاتساعد على بث الحيوية في مختلف القطاعات الاقتصادية ، وهي ابعد ماتكون عن تحديث القطاعات التقليدية الواسعة من المجتمع . وفضلا عن ذلك فهي تستر هروب الأدمغة الوطنية التي هي بحكم منشئها وخاصيتها الحضارية والثقافية اكثر الملاكات أهلية لتزويد المجتمع العربي الشغوف بالتقدم الصناعي والثقافي بالمادة الرمادية وبالعصرية .

نتيجة لقسمة العمل الدولية هذه وما يسفر عنها من موضعة الصناعات الجديدة غالباً على هامش الوطن العربي ، وبانقطاع اقتصادي وتجاري عنه بما

يسهل ربطها باحكام الرأسمالية الدولية ، فان التصنيع العربي مايزال جزئياً وبطيئاً .

القسم الاول : الفعل الثقافي للتصنيع

ان التطابق بين التصنيع والثقافة يستوجب في المقام الاول التميز بين امرين مختلفين ، هما الفعل الثقافي والايديولوجي ، بالاقلمة والتفتح التجريبيين المتواليين ، الذي يلخص العمل الحكومي في حقل التعليم ونشر الثقافة على اساس اختيارات Options ذات منحى عصري ودنيوي ،وفي بعض الحقول العلمية علماني ايضاً .

يبلور التصنيع في الواقع الاجتماعي انماطاً من تنظيم الانتاج المادي واهتماماً خارقاً بالتكنولوجيا ومطامع جديدة للرفاه المادي . ويرى الرأسماليون والتكنوقراطيون في التصنيع مصدراً للارباح وسبيلاً لنيل امتيازات مادية بينما يرى الانسانيون العصريون (الاشتراكيون) فيه قاعدة للانتاج الاشتراكي وسبيلا لتحرير الطاقات المادية والذهنية .

وفي الواقع نرى المشروع التصنيعي ينحصر se cantoner حيث اتساع ميدانه ،نتيجة للجزئية التي يتسم بها بعده الافقي . على أن فعله يمتد كثيراً في الزمان، خاصة وانه يتناول المجتمع العربي بأعمق قناعاته مصطدماً بمقاومة عنيفة من نظام الأفكار المتوارثة والشائعة في الوسط الاجتماعي . ونلاحظ أن الفئات الاجتماعية والملاكات الأكثر تأثراً بالتكنولوجيا وبالصناعة المتقدمة والاكثر تطعماً بالفكر العلمي التطبيقي وبالثقافة العصرية هي التي تفرز العناصر التي تفكر

باستبدال البنى المتوارثة من الحضارة العربية الاسلامية والمشوهة بفعل الاستعمار بمجتمع جديد كلياً .

يستثير التصنيع عقلية انتاجية ، عقلانية المذهب وتجريبية ، ولكن نظراً لاقتصاره على قطاعات ضيقة فان فعله الثقافي والاخلاقي يتغلغل بصورة صعبة وبطيئة في المجتمع التقليدي .

كان احتقار الصنعة خاصة متواصلة في التقليد البدوي العربي ، نجدها في الشعر الجاهلي والكلاسيكي . ورغم نمو الصنعة الحرفية منذ قديم الزمان في المراكز الحضرية المستمرة على مر الايام كدمشق ، فان التجارة بالذات هي التي شكلت محور النقاش الاجتماعي والاخلاقي في العالم العربي ، ولم يكن ذلك غريباً عن النشاط التجاري لقبيلة قريش وللعرب عامة ممن عرفوا التجارة قبل ان يعتنقوا الاسلام . فالنشاط التجاري في هـــذه المنطقة يشكل وظيفة موضوعيـة Vocation objective منبثقة عن الموقع الجغرافي ، ولذلك فقد صنف في سلم القيم الاسلاميـــة تصنيفاً حسناً . في سورية ظهرت الورشات الميكانيكية والكهربائية اول مانشأت لدى شريحتين اجتماعيتين من شرائح البورجوازية الصغيرة السفلى في المدن : احداهما ارمنية مهاجرة هربت بجلدها من حمامات الدم التركيـــة ، وكانت في عسر شـــديد وبلاء فاستقرت عـنـدنا واستوطنت . والاخرى محلية قديمة الاصول . ونجد هنا فكرة خاطئة متداولة تأتت من التقاعس عن دراسة التاريخ الاقتصادي والممارسة الانتاجية والموقف القيمي للمجتمع العربي ، دراسة جدلية نقدية ، أي بتحديد انماط الانتاج الاجتماعي واشكال التكنيك السائدة فيها قبل الوقوع في براثن الرأسمالية الصناعية الغربية . على العكس

ان الفكرة الشائعة تقوم على النظر الى القيم الأخلاقيـة المحتقرة للصنعة والمفاهيم المتعاليـة الموروثة عن المجتمع القبلي والتجاري في شبه الجزيرة كما تظهر في شعر الصنعة لدى النخبة وكأنها قيم تعكس الموقف القيمي للمجتمع الاسلامي الحضري، بينما هي مثل حي للبنى الفوقية Superstructures التي تقاوم تبدل المجتمع في بناه السفلي الاقتصادية والاجتماعيـــة ولا تتبدل بدورهــــا الا بتأخر زمني دون ان تمثل في الفترة المتأخرة القيم السائدة فعلا ولاسيما في الحياة الاجتماعية اليومية . والحق ان احتقار الصنعة تقليد لم يمت حتى في أيامنا . ورواسبه ملحوظة في موقف البورجوازية التجارية الكبيرة مثلا من الاختصاصات التقنية البحتة حتى عهد قريب. ولكن كيف ننسى ان الصنعة نشاط حرفي يطبع قطاعات واسعة من مجتمعات المدن ، ولاسيما البورجوازية الصغيرة والمتوسطة غير التجارية . وهل يمكن تصور مجتمع تبرز فيه اهمية المهنة كمجتمع الشرق العربي بدون انشطة حرفية عريقة ومتجددة ؟ اكثر من ذلك : بين ١٩١٤ و ١٩٣٩ وبصورة أخص مع انقطاع المواصلات العالمية منذ ١٩٤٠ ، أثرى التجار من بورجوازية المدينة فانكبوا على بناء المصانع وبالأخص معامل النسيج .

وفي المدينة تتجلى ديمومة البنى التجارية التقليدية ، رغم ما يتم من تحديث في اساليب التجارة والممارسة المصرفية ، وتنعكس هذه الديمومة على المستويين السوسيولوجي والبسيكولوجي في موقف المحافظة الاجتماعية Conservatisme Social والتقليدية الدينية Traditionnalisme Religieux في ادراك العالم . وهذه الظاهرة انما تستجيب للضرورات المهنية وطبيعة الصلات اليومية مع الفلاحين والسماسرة من جهة ، والمثل الأخلاقية والدنيا التي تتطور ببطء وفقاً لقانون التطور

غير المتكافىء للبنى المختلفة للمجتمع في غياب تصنيع شامل يوصل الى العصرية من جهة أخرى. ونجد هنا ايضاً أسر الجاذبية السحرية للمهن الحرة في هذه المراتب الاجتماعية المقطوعة عن التكنولوجيا الصناعية والطموحة مع ذلك الى اعتلاء مادي ومعنوي في المجتمع.

وعلى العكس ففيما يخص الصناعة تبدل الآلة الحديثة. حيث تظهر (وهي تظهر في المدن الكبيرة)، النشاط الانتاجي للحرفيين القدامى، غير ان تبدل نمط الملكية بالذات (حيث الآلات الجديدة ملك للصناعيين الجــدد الذين وظفوا اموالاً في الصناعة ولا سيا في النسيج)، مع كل مايرتبط بهذا النمط من التملك من علاقات اجتماعية هي علاقات الأجراء بالرأسماليين، انما يبدل في اطار عملية التصنيع شروط الانتاج والحياة اليومية بقلبها رأساً على عقب، ومعها الشروط السوسيولوجية الخاصة ببنية العائلة او السكن او المواقف الطبقية او القيم لهؤلاء المنتجين الصناعيين الجدد.

اولا : اطار التحديث الثقافي :

ان التصنيع من الجزئية fragmentarité الشديدة والتوقيت التاريخي المتأخر بحيث يعجز عن توليــد التطور الشامل الذي عرفته الثقافة العصرية séculaire التي تتواكب فوق الشرائح التقليدية من الثقافة والقيم الاجتماعية والأخلاقية للتفاعل من ثم ببطء معها : ففي مرحلة جد مبكرة قبل عقدين او اكثر من بدء التصنيع، بدأ تحديث الثقافة والتعليم الدنيوي على يد البعثات التبشيرية الأجنبية بما يمهد التغلغل الاستعماري وييسره. لكن التعليم لم يتم كظاهرة شعبية حقاً الا على يد سلطات وطنيـة قامت غداة الاستقلال السياسي في أجزاء العالم الذي شكل المجتمع العربي الاسلامي فيما مضى.

ان ادخال التعليم العام وانشاء الجامعات العربية العصرية (كلية الطب بدمشق في سنة ١٩٢٠) ونمو الصحافة المكتوبة والاذاعة بلغة ادبية مبسطة عوامل ارست فوق المجتمعات العربية بنى فوقية ذات عجلة لغوية وطنية وقيم متناقضة : اسلامية مخضرمة وعصرية ، اصلاحية وثورية . وفي بلد كسورية دفع بالمشروع المدرسي والثقافي بعيداً جداً وعمم بحيث نجد محافظات باكملها عاشت اقتصادياً في نظام الاقتصاد المقفل مقطوعة عن العالم الخارجي وحتى عن المدن الكبيرة المحلية، وظلت خارج المشروع التصنيعي حتى عهد جد قريب . ولكن تعددت فيها المدارس وكثرت فيها اللاكات ذات الثقافة العصرية . ويمكننا ان نعمم هنا فنقول ان الفعل غير المباشر للمجتمعات الرأسمالية الصناعية ولثقافتها العصرية ، وهو فعل تسلطي يتسم بالتحدي ، كان بالا يقارن ابكر واعم من التأثير المحض لحركية التصنيع .

ثانيا : الشكل التبشيري والمضمون الاستعماري :

هذا الهجوم الثقافي التسلطي أدى الى مجابهة بين ثقافتين متمايزتين ، بينما لم يكن تهديد البنى السفلية الاقتصادية الموازية في غالب الاحيان إلا ضعيفاً يكاد ينعدم احياناً. وقد غيرت هذه المجابهة بين ثقافة استعمارية باغراضها، واساليب فرضها لم تحمل عمداً من اصلها البيئي الصناعي الرأسمالي الطابع التقني والعلمي التطبيقي وانما هي حملت الطابع الأدبي الموسوعي والنظري الذي يكرس اخضاع المجتمع العربي عبر ربطه ربطاً بقسمة العمل الرأسمالية الدولية وبالنظام الكولونيالي . لجأ الاستعمار الكولونيالي بغية تنفيذ مخططه الثقافي هذا الى فرز فئات اجتماعية محلية فاستزلمها وصاغها ايديولوجيا وجعل منها اسلحة للتمركز في المسيرة الستراتيجية من الوطن العربي، ولارساء بنية فوقية فكرية في المجتمع العربي ولاسيما المشرقي تعكس

حركية الخضوع للغرب الرأسمالي خضوعاً يحمل تناقضات داخلية ابرزها النزعات العلمانية والثورية التي ظهرت مع مطلع القرن ونمت بعـــد ثورة اكتوبر وتعزز الفكر الاشتراكي الأوربي .

اتخذ البناء الفكري التبشيري شكلا دينياً وطائفياً، وذلك بفرعيه الفرنسي - اللاتيني والانكلو - اميركي . غير ان مضمونه الحضاري الثقافي هو الذي حــدد صيرورته ووجهة التناقض الذي قام بينه وبين البنى الفكرية الاسلاميـة والموروثة من ما قبل الرأسمالية . فقد ولد هذا التناقض في هذه البنى الايديولوجية والسياسية والثقافية مدرسة فكرية عرفت بالاساسية الاسلامية قامت على احيـاء الجوانب العادلة الثورية في الفكر والتاريخ الاسلاميين رداً محلياً على تحدي الفكر الغربي الرأسمالي لها . ووجدت هذه المدرسة امتدادات لاحقة لها في الحركات الاجتماعية الاسلامية ، وبشكل اوضح واكثر فاعلية فيما بعد في الحركات القومية الراديكالية التي تكونت عبر عملية تجذر Radicalisation تاريخي للمدرسة القومية وليدة التناقض الداخلي في البناء الفكري الغربي الرأسمالي بين الافكار والقيم التحررية القومية المناوئة للاستبداد والتسلط من جهة ، والممارسة التسلطية العدوانية اليومية للاستعمار في المنطقة العربية من جهة اخرى .

ثالثا : التحديث الثقافي والاشتراكية :

غير ان احتدام ازمة الرأسمالية وتبلور الاشتراكية اغنى هـــذا الصراع التناحري بين التبشير الفكري الاستعماري والدفاع الذاتي لدى المراتب الشعبيـة العـاملة من المجتمع العربي بايديولوجية اشتراكية متمايزة باستمرار . وحري بنا ان ننبه هنا الى ان المشروع التصنيعي وتعابيره الثقافية والايديولوجية في الوطن العربي

اليوم ليست من حيث جوهرها رأسمالية احادية ، والتميز برأينا ضروري على صعيدي التنظيم الاجتماعي للانتاج والقيم . فالاقطار العربية تجابه تحديين متناقضين هما : تحدي النموذج الرأسمالي الغربي الذي استكمل بمرحلته الامبريالية والذي فجر بالحقيقة محاولات التحديث العربي . ونظراً لطابعه العدواني، التشويهي والتسلطي فانه مستحيل التطبيق موضوعياً في المجتمعات ضحية الاستغلال والمسماة بالمتخلفة، حيث انه يقوم على الهيمنة الامبريالية ويشكل في حد ذاته وبحكم علاقات الانتاج الدولية التي يفرضها نفياً باتاً لأي امكانية لتطبيقه في هذه المجتمعات. وهو مرفوض ذاتيا رفضاً يشمل علاقاته الانتاجية الرأسمالية وقيمه الاجتماعية وتقديسه الربح وفلسفته في سرقة الشعوب .

اما النموذج الآخر : الاشتراكي الجماعي ، فهو احدث عهداً وذو صيغ خصبة التنوع ، حيوية الصيرورة في اوربا الشرقية وآسيا وامريكا اللاتينية . هذا النموذج الاشتراكي من التصنيع والتحديث الاجتماعي لم يعد مجرد حلم تاريخي يدغدغ المجتمع العربي . فبحكم العلاقات الاقتصادية والسياسية غير المتكافئة بين الوطن العربي والغرب الامبريالي ونتيجة لتدخل البلدان الاشتراكية عبر معوناتها الاقتصادية والتقنية والعسكرية والديبلوماسية باتجاه قلب هذه العلاقات وتعزيز الاتجاهات التحررية في الاقتصاد والتجارة الخارجية ، يشكل هذا النموذج تحدياً جديداً ، ايجابياً بمضمونه للمجتمع العربي حتى اصبح تمجيد القطاع العام والاشتراكية واقعاً ساطعاً .

ومما سهل ذلك ان الايديولوجية الاسلامية اتسمت بميل الى الثنائية : tendance à la dualité فيما يخص التنظيم المجتمعي والقيم . فقد عبرت من جانب

عن الخلفية التاريخية الاجتماعية لدخول قريش في دين الاسلام (١) وعن ترحيب الاخلاقية الدينية الجديدة بالنشاط التجاري وبتملك المال والمتاع(٢) داخل حدود تشريعية واخلاقية رسمتها بالطبع . هذا من جانب ، ولكن من جانب آخر فقد عبرت عن طموح شديد للعدالة وتنديدبالظلم اعلنه عمر بن الخطاب، واكدت عليه مدارس ثورية في الاسلام عبر العصور الماضية. كما جددهفي معمعان الثورة على الطغيان العثماني عبدالرحمن الكواكبي (٣) ،حتى لنجداليوم تياراً شعبياً اسلامياً يقترب من الشعبية populisme . وقد بين المستشرق مكسيم رودنسون كيف تغلغلت الرأسمالية تدريجياً في العالم العربي بتواقت مع انتقال التحكم في مصيره السياسي والاقتصادي من يد العثمانيين الى الغرب الرأسمالي(٤) ، وكيف اقيمت الجيوب الرأسمالية الاولى على يد الاقليات الدينية من جهة والجاليات الاوربية المستقرة مؤقتاً او المستعربة، في المرافىء ومراكز التجارة من جهة أخرى، لتنقل الرأسمالية الغربية

---

(١) الدكتور صلاح الخالص : « تاريخنا على ضوء المادية التاريخية » ، الثقافة الجديدة . بغداد ، نيسان ابريل ١٩٦٠ .

(٢) Goitein : « The Rise of the Middle Eastern Bourgeoisie in Early Islames Times » , chapter XI in « Studies in Islamic History and Institutions » , leiden, E. J. Brill, 1966 , pp.217 -241.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي:«طبائع الاستعباد » ـ القاهرة، وايضاً «أم القرى». وايضاً : رفاعة رفعت الطهطاوي : « فليكن الوطن محلاً مشتركاً نبنيه بالحرية والفكر والمصنع » ، في ترجمته الفرنسية :

Abdel - Malek,anouar : « Anthologie de la littérature arabe contemporaine , les essais » , paris , ed . du seuil , 1965 , 463 p.

(٤) بصدد التغلغل الرأسمالي الغربي في سورية ولبنان خلال القرن الثامن عشر والنصف الاول من هذا القرن يحسن بالقارىء الرجوع الى الدكتور بدر الدين السباعي « اضواء على الرأسمال الاجنبي ١٨٠٠ — ١٩٥٨ » دمشق : دار الجماهير .

بعدئذ شيئاً فشيئاً الى الوسط المحلي وتشمل فئات التجار والملاكين المحليـة(١) . ليلاحظ من ثم ــ وهذا ما يعنينا هنا ــ موقف المراجع الدينية حاميـــة الاسلام الرسمي حيث لم تقاوم هذه المراجع التفشي الرأسمالي الا لماماً . ولم تظهر مخاوف الا في حقبة متأخرة . واخيراً نلمس تفسيرات اوضائية او تجديدية لمواقف الاسلام الاقتصادية(٢) .

تجلت الجهالة العنصرية الاستعمارية عند المستشرقين الرجعيين في تجنيهم المنافي للحقيقة على الاسلام باتهامه بالجمود الاقتصادي وقتل المبادرة ، كما فعل ارنست رينان في مؤلفـــه «الاسلامية والعلم L'islamisme et science » المنشور سنة ١٨٨٣ ، وكاتب محدث هو ر. شارل في كتاب نشر قبل ثلاثة عشر عاماً في باريز ايضاً تحت عنوان الروح الاسلامية (R. chrles:L' esprit musulman)(٣)

وبالمقابل فقد ذكر المجددون الاسلاميون بالنمو الاقتصادي المرموق الذي حققه المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى ، غير ان ما يهمنا هنا هو الموقف من التحديث الاشتراكي . فقد دفع احراز البلدان الاشتراكية تقدماً اقتصادياً معجلا ونقد النظام الاشتراكي للرأسمالية الى رفض المجددين الاسلاميين التحديث الاقتصادي في صيغته الرأسمالية الليبرالية وتأكيدهم بان الاسلام قد حذر من عواقبها الاجتماعية

(١) Rodinson , Maxime :« Islam et Capitalisme » , paris, ed.du seuil , 1966 .

(٢) Rodinson, Maxime : «Le poids de l' Islam sur le développement économique et social » in frères du monde, n°33 Bordeaux , pp . 10 et 9 .

(٣) الدكتور مصطفى السباعي : « اشتراكية الاسلام » ، طبعة القـــاهرة ، سلسلة اخترنا لك .

وانتهوا الى موقف انتقائي قوامه اشتراكية اسلامية الهية الوحي خــالدة تارة ، ومذهب اقتصادي خاص بالاسلام يجمع مزايا الاشتراكيـة والرأسمالية ويتجاوز مثالبها (١) تارة أخرى .

القسم الثاني : تحديث البنى الثقافية والتعليمية والتصنيع :

شاع لدى الفقهاء تناول المسائل تناولاً كتبياً جامداً approche livresque واصطفى كثيرون منهم لأنفسهم وظيفة الحبر vocation de scribe في المجتمع لدرجة لم يعد معها تأثيرهما السياسي المحافظ الرجعي يخفى على باحثي المجتمـع العربي . وليست هذه المسألة موضع بحثنا هنا، سيما وان النشر المرموق للتعليم الرسمي العصري يتصدى في الارياف العربية الاشد نأياً لأصلد مراكز الثقافة الطرائقيـة الصوفية والكتبية .

. ثمة ثلاثة عوامل في فقدان التأقلم بين البنية الثقافية والتصنيع تختلف فيما بينها من حيث الاهمية ، ولكنها ترفـد بعضها بعضاً وتستحق اذن هنا أن تؤخذ بالحسبان :

أولا : التحديث اللغوي :

تم تحديث اللغة العربية وتبسيطها بصورة تدريجية على يد لغويين لم يقفوا على أرضية صناعية لا محلية ولا أجنبية . وفضلاً عن ذلك لم يقم هؤلاء بتحقيقات وتجريبات منهجية حقيقية عن عتاد العربية الكلاسيكية العلمي، وهو كما نعلم مدهش بغناه ، بينما عجزت المجامع اللغوية غالباً عن مدّ جسر ثابت يصلها بعملية التحديث التصنيعي والانتاجي وبالواقع الاجتماعي اليومي .

(١) نفس المرجع الثاني

وبينما تمثلت اللغة العامية لغة الجماهير في حياتها اليومية وهضمت باستمرار الوسائل اللغوية الغربية للتعريف بالادوات والطرائق التكنولوجية المحدودة التي استخدمتها بأقلمتها أقلمة تجريبية وكيفية على قلة المامها باللغة وقواعدها وبالتراث العلمي الوطني ، تبلور الأدب العربي الحديث في انقطـــاع عن عالم التكنولوجيا والصناعة سواء من الناحية الاجتماعية ، حيث طبقات العمال والصناع محرومة في المجتمع غير الاشتراكي من التعليم والثقافة ، او من ناحيـة الترابط المتبادل بين المناهج الثقافية ووسائلها التعبيرية اللغوية ،حيث التعليم الثانوي نظري وكتبي لا صلة له بالصناعة والتقنية ، وحيث المدارس الزراعية والصناعية كم يهمل . وفي هذا التفارق بين العامية المغتنية بالتعابير التقنية الغربية دون قاعدة او ضابط ،والفصحى الحديثة البعيدة عن الآلة يظهر لنا البعد الثاني لفقدان التأقلم Inadaptabilte بين البنى الثقافية والتصنيع .

يخفف تعريب التعليم الفني والجامعي بما لا يقبل الشك التوتر اللغوي على صعيد التصنيع . بيد ان تأقلم العجلة الثقافية اللغوية مع الواقع الصناعي الوليد تأقلماً منهجياً متواصلاً يبقى أحد الشواغل الهامة للمجتمعات العربية . وفي المرحلة الجديدة تدخل الصناعات البتروكيميائية والالكترونية والاساليب التقنية العصرية في الاقتصاد وعلوم المجتمع تمدد خط هذه الشواغل وتبرز صفتها الراهنة .

ثانياً ، التعليم والتصنيع ،

يشكل التعليم مكسباً هاماً من زاوية التحديث الاجتماعي والفكري في المجتمعات العربية ، فهو يضع اجيالها الجديدة ان في المدينة او الريف ، في جو المعارف العلمية العصرية فتتشرب بعقلية وبنمط من التفكيــر يؤلف مضمونها

تسوية بين العصري والعالمي من جهة والمحلي الكلاسيكي المتباطىء من جهة أخرى، هي تسوية حبلى بالمفارقات والتناقضات التي تشكل حصيلتها واحدة من عقبات الانتقال بالتخطيط من برمجة لتوظيف رؤوس الأموال الى تنسيق لنمو الأنشطة الاقتصادية المختلفة .

ان ما يعنينا هنا هو الوظيفة الراهنة للتعليم العربي . ورغم التفاوت المتزايد في غايات التعليم ومضمونها الطبقي في الاقطار العربية المختلفة يبدو المكان الممنوح في التعليم العربي للتقنية وللمعارف الصناعية محدوداً، بينما المعارف الحقوقية والأدبية والنظرية تحض بالحظوة والأولوية . ويكوّن التعليم الثانوي والتعليم الجامعي في معظم الحالات اناساً متعامين خلفيتهم الثقافية عصرية ولكنهم غير مجهزين لخوض المعركة التحويرية الصناعية والتكنولوجية ، وينجم عن هذا توتر يظهر للعيان عند الشروع بارساء البنى الصناعية وتنفيذ المهام التصميمية والادارية الانتاجية التي يطرحها التصنيع الوطني .

في القطاعات الاكثر تقدماً والاكثر توجيهاً نحو الصناعة (الأسواق) الدولية ، سرعان ما يتجلى هذا التوتر بسبب النزاع السياسي بين هدف السياسة الاقتصادية الوطنية ومرامي المصالح الأجنبية، فيظهر بشكله الثقافي والمهني في النضال الطبقي والوطني من اجل التكوين المهني للعمال والفنيين العرب في الاقطار العربية المصدرة للنفط مثلاً . على اننا لا نخطىء ان قلنا ان اتجاهات التعليم الثانوي ومعظم التعليم الجامعي مازالت اتجاهات المعرفة العارفة Le savoir savant والكتبية الجامدة Livresque المقطوعة الجذور عن الواقع الاقتصادي والصناعي، وهي تشكل الى اليوم مفارقة (Paradoxe)التعليم الرسمي الحديث كقوة تلجم تقدم التصنيع احياناً كثيرة .

نلاحظ في تاريخنا الحديث تناسباً توافقياً بين نمو التعليم الوطني وانتصار التعريب من جهة، ونمو الحركة الوطنية الاستقلالية وانتزاعها السيادة السياسية من جهة أخرى، بعد ان مهدت النهضة الثقافية في لبنان وسورية ومصر وفي العراق او الجزائر لتفجر الثورات الوطنية العربية. كذلك نجد تناسباً توافقياً آخر بين تعميم التعليم الالزامي والتركيز على التعليم الفني والصناعي في المرحلتين الثانوية والعالية من جهة ونمو الحركة الاشتراكية وقيامها بتحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية تقدمية من جهة ثانية. وبالفعل فإن الأنظمة التقدمية العربية تطرح برامج اجتماعية متقدمة في الريف (الاصلاح الزراعي والتعاون وما يرتبط بهما من مكننة وتحديث تقني وتسويق مبرمج) وفي المدينة (التأميمات ومشاريع التصنيع). وتتخذ هذه الانظمة مشروع التصنيع اسلوباً مفضلا للرد على التحديات السياسية والاقتصادية والايديولوجية التي تجابهها بها الامبريالية والرجعية العربية، وفي هذا الاطار يصبح محتماً من الناحية الموضوعية تنشيط التكوين المهني والتعليم الصناعي والتقني بتوسيعها أفقياً وبتعميقها في أوساط شعبية متزايدة.

ثالثاً : الخبرة التعليمية الغربية والتحديث الثقافي الوطني :

ان ظاهرة الاستعمار في مستوى البنى التعليمية والثقافية جزء من عملية التحكم الشاملة المترتبة على التسلط الاقتصادي والسياسي. ونظرة تاريخية الى التغلغل الاستعماري في الوطن العربي تكشف لنا عن الدور الذي قامت به الارساليات التعليمية الغربية في التمهيد لبسط الاستعمار سيطرته السياسية السافرة، وفي تكملة المنطقة به وتكريس تبعيتها له. ولا شك ان الفعل الاستعماري على مستوى البنى التعليمية والثقافية كان من الشمول والعمق في المغرب العربي بما يعكس شدة التحكم الاستعماري بهذا الجناح من الوطن العربي وطول مدته،

بالمقارنة مع فعل الاستعمار الثقافي في المشرق العربي. ولكن اهم ما ينبغي التأكيد عليه هو تحطيم هذا الاستعمار البنى التعليمية والثقافية التقليدية، وفقاً لسياسة لغوية محورها ضرب اللغة العربية واقامة نظام تعليم وتحديث ثقافي أجنبي اللغة من جهة، ومن جهة أخرى نخبوي - استعماري اقتصر مدة طويلة سيما في مراحله العليا على ابناء المعمرين وقلة الاثرياء المحليين، بما يجعله معزولاً عن البيئة الوطنية، مربوطاً بالاستعمار.

ان الضمور الشديد للبنية التعليمية وللتحديث الثقافي كتركة استعمارية، والانتماء الطبقي والاجتماعي والثقافي للسلطات الوطنية الوليدة، والتنازلات المقدمة ثمناً للتعجيل بانتزاع الاستقلال، قد ولدت ظاهرة اللجوء الى الخبرة التعليمية الغربية بشكل حاد وعلى نطاق واسع. وهي ظاهرة اساسية من ظواهر الاستعمار الجديد ترفد ضغوطه الاقتصادية وتدعم مقاومته في سبيل البقاء المحلي وتعزز مساعيه من اجل تجديد هيمنته بتحوير صيغها واشكالها. وقد تطرقنا لهذه النقطة قبلاً في هذا البحث، غير ان ما يعنينا هنا هو التناقض الحاد بين استمرار اللجوء الواسع الى الخبرة التعليمية الغربية والتحديث الثقافي الوطني بوصفه عنصراً من عناصر التصنيع والتحديث الاجتماعي الشامل.

تشكل سياسة اللجوء الواسع الى الخبرة التعليمية الغربية عقبة امام بناء شبكة تعليمية وبنية ثقافية وطنيتين حتى ليمكننا التأكيد بانه كلما كانت اعداد هؤلاء «الخبراء» كبيرة، كانت وتائر التقدم التعليمي الوطني بطيئة، وتأخر بناء الثقافة الوطنية الجديدة. واذا نظرنا الى المشكلة نظرة شاقولية وتصورنا الخبرة التعليمية الاجنبية هرماً امكننا ان نرى تناسباً عكسياً بين اتساع قاعدة الهرم

(اي كثرة عدد « الخبراء » في المرحلة الاولية والابتدائية) وتقدم مشروع التحديث الثقافي العربي. وفضلا عن ذلك فإن هذا الهرم يضمر بوتيرة متسارعة كلما صعدنا سلمه. اي ان التحديث التعليمي الجامعي يتسارع موضوعياً عن التحديث التعليمي الابتدائي والثانوي ، عندما تتدخل السلطة الوطنية بسياسة تعليمية وطنية وطبقية تشجع طلبة العهد الاستقلالي ذوي الاصول الشعبيــــة على التعلم وبلوغ التحديث الثقافي العربي. اذ انمقاومةالاستعمار للتحديث الوطني الثقافي تشتد بالمقابل كما نلاحظ في عدد من الاقطار العربية كلما صعدنا سلم التعليم .وهذا مرتبط بأهمية التعليمين الثانوي والفني منه خاصة ، والجامعي في انجاز التصنيع الوطني والتحرر الاقتصادي .

ان استجار الخبرة التعليمية والثقافية الغربية يعني في المقام الاول المحافظة على سيادة اللغة الاجنبية في التعليم .ولا سيما في فروعه الفنية والصناعية،وتترتب على ذلك جملة من العقبات (١) امام التصنيع الوطني ، تظهر :

آ – في ميدان التعليم الهندسي والصناعي العالي : يوجه الفنيون من خريجي المعاهد الثانوية و كذلك الجامعيون الى جامعات البلد الامبريالي مؤجر الخبرة بما

---

(١) غير أن فهم هـــذه المسألة فهماً جدلياً يبين لنا أن تلك اللغة الأجنبية مفتاح للتخصص العلمي والتقني العالي وللبحث المتقدم.وبنفس الوقت فإن دراسة المناهج الغربية تمد القطاع العام وأجهزة الانماء بملاكات – وهذه مفارقة من مفارقات الصراع بين الغائية الاستعمارية للتعليم الأجنبي والغائية الوطنية والطبقية للطموح التعليمي والثقافي لدىالطلبة تثق اعداد كثيرة منها بقدرتها على ادارات القطاعات الصناعية والتجارية الاجنبية فور تأميمها وعلى مجابهة « الخبراء » الأجانب ومندوبي البنوك والشركات الرأسمالية الدوليةعلى صعيدي المصلحة الوطنية والكفاءة المهنية .

يضمن نفوذه الثقافي في جامعات البلد المستأجر وديومة الوصاية الاستعمارية على التعليم والفكر التطبيقيين الجامعيين .

ب ـ في ميدان التبعية الصناعية والتجارية ، تربى الملاكات الفنية الوطنية على تثمين الآلات والاجهزة المصنوعة في البلد الامبريالي مؤجر الخبرة . ويشكل تعلم لغته ومناهجه التعليمية عاملا مساعداً جداً على ذلك، كما تقدم البعثات التدريبية والعلمية واللغوية للوزارات المهتمة بالتصنيع وللمؤسسات الانمائية بما يخلق مناخاً تجارياً مؤاتياً يضمن استمرار البلد مستأجر الخبرة في استيراد مصنوعات البلد الامبريالي المؤجر بالافضلية .

جـ ـ في ميدان سرقة الأدمغة الوطنية ، ان نفوذ الغرب التعليمي والثقافي يجعل المثقفين الوطنيين شديدي الانفتاح على العالم الرأسمالي ، ويخلق واحداً من العوامل الموضوعية الهامة لهروب الأدمغة الى البلدان الامبريالية بما يعرقل عملية التصنيع الوطني . وهكذا تفيد الامبريالية إفادة مضاعفة ؛ فهي تضمن بذلك من جهة « مجالاً حيوياً » لملاكاتها الفنية ورصداً (بفضل الأدمغة التي سرقتها من البلدان الأخرى) لتطورات الصناعية تتخذ على أساسه مبادرات التغلغل في اقتصاديات هذه البلدان بكثير من الذكاء وحسن الاختيار .

د ـ في عزل المثقفين عن الواقع الوطني ، ان استمرار سيادة اللغة الاجنبية ووصاية الخبرة التعليمية الغربية يواصل عزلة الكثيرين من المثقفين عن الواقع الوطني فكرياً ونفسياً ويبقيهم قليلي التفهم لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية

خاتمة

في منظور التصنيع والتنمية الاقتصادية والاجتماعية تشكل اللاعقلانية Irrationalite ظاهرة بنيوية Phenomene Structurel في المجتمعات العربية. إذ تصطدم مشاريع التصنيع العربي ذات المنطلق الوطني بلا عقلانية متعددة الأوجه : أقليمية ترافقها غالباً لاعقلانية سكانية وبصورة أعم اقتصادية . وليس الأمر صدفة تاريخية ، فقد ارتسم تسلط الاستعمار على الوطن العربي جملة من التشويهات كانت الشرط الضروري لسيطرته السياسية عليه ونهبه لاقتصادياته .

انطلاقاً من هنا لايمكن لأي تصنيع ولا لأي تحديث في المجتمعات العربية ان يتم بدون تحطيم هذه الظاهرة البنيوية من اللاعقلانية ، وبدون اعادة النظر بجرأة وعناد ، واحياناً بإيلام في التجزئة الاقليمية وفي العلاقات العربية الخارجية : التجارية والاقتصادية ، بإتجاه ارساء وتعزيز سيادتها الوطنية وترابطها Interdependance فيما بينها وبتحويل اتجاهات مبادلاتها الخارجية المتعددة عن الدول الامبريالية . وقد دلت التجربة التاريخية الخاصة بمرحلة الاستقلال السياسي ان نشاط الدولة المنهّج Action systematise هو الذي يمكن من خلال اخضاعه للنقد والتحسين المستمرين ، بلوغ هذه الاهداف السابقة والمهيئة لتصنيع المجتمع ، المجددة بنفس الوقت له .

في المقام الأخير ، نلمس بالحقيقة هنا قانون تطور الرأسمالية غير المتكافىء سواء بصوره الداخلية في المجتمعات الامبريالية ، أو في أشكال ظهوره الدولية والخارجية « المنزلة من الجو » بمظلات المبشرين وخبراء « التعاون » . فهذا قانون يظهر للعيان في التفاوت وعدم التأقلم بين تطور البنى الاقتصادية الاجتماعية ، وبالذات التصنيع بحركته البطيئة وفعله الجزئي ومساره الخاضع لرأس المال الدولي

من جهة ، وتحديث التعليم الرسمي والوطني شبه الشامل وبنفس الوقت الاقل ارتباطاً بالامبريالية الثقافية والايديولوجية بسبب مستـــواه البنيوي الفوقي (١) المتناقض والهجمات المضادة التي تستنفرها الامبريالية في نفوس الشعوب .

هذا التحديث الثقافي الذي لم يتولد حقيقة من تصنيع واسع وطني ،يتأقلم تأقلماً ناقصاً لابل هو يلجم هذا التصنيع ، ترفده في فعله هذا البنى الفوقية الثقافية والقيم ماقبل الرأسمالية التي مازالت حية .

(١) في المؤتمر الثامن للجمعية الدولية لباحثي المجتمع باللغة الفرنسية المخصص للتصنيع والخاصية الثقافية (تونس ٢٦ ايلول — اول تشرين الأول ١٩٧١) تدخل البروفسور جاك بيرك بعد تقديمنا تقريرنا عن الامبريالية والتصنيع والثقافة في المجتمع العربي،فاعترض على تصنيفنا اللغة والثقافة في عداد البنى الفوقية Superstructures في حالة الخاصيـة الثقافية واللغوية العربية . ان البروفسور جاك بيرك محق بلا شك في تأكيـــده على الدور المرموق،بل قل الاستثنائي،الذي اضطلعت به اجتماعياً وسياسياً وسيكولوجيا اللغة والثقافة العربيتان ، غير أننا نرى صائباً استمرارنا في التصنيف المنهجي نفسه ، لأن اللغة والثقافة العربيتين بولادتها وتكونها التاريخي وصيرورتها ، انما صيغتا واعطيتا مالها من خصائص في اطار أنماط الانتاج السائدة عبر المراحل المتعاقبة من التاريخ العربي . واليوم فان التجدد المتواصل للغة وللثقافة العربيتين عملية تحولية مازالت مستمرة يحددها التحديث الاجتماعي والاقتصادي الراهن، ولكنها تؤثر بدورها فيه كظاهرة فوقية مؤثرة في البنى الاقتصادية. ولكن صيرورتها تتحدد في آخر تحديد بتبدلات انماط الانتاج السائدة .

عسكرة الاقتصاد الرأسمالي

عصام خفاجي

نادراً ما تعرض الدور الاقتصادي الذي تلعبه القوات المسلحة في الأنظمة الرأسمالية الاحتكارية الى بحث وتحليل الاقتصاديين العرب (١) . ورغم ان لهذا الموضوع علاقة بمسألة التحرر الوطني الديمقراطي لبلدان العالم الثالث فلقد اكتفى البعض بتناول الدور السياسي الايديولوجي والاجتماعي للجيش في هذه البلدان . ان مثل هذه الدراسة قد تكفي في ظروف المنافسة الحرة ولكن الأمر لم يعد كذلك مذ دخلت الرأسمالية مرحلتها العليا . من هنا تحاول هذه الدراسة عرض وتحليل النواحي الاقتصادية التي افرزت هذا الحل : عسكرة الاقتصاد . ومن ثم

(١) من الدراسات القليلة التي تناولت هذا الموضوع انظر : بسام طيبي-الاستعمار الجديد والفاشية الامريكية (دراسات عربية ـ آب ١٩٦٧)والدكتور ابراهيم كبة:حول مفهوم رأسمالية الدولة الاحتكارية (مجلة الاقتصاد ـ حزيران ١٩٧١).

النتائج التي أدت اليها هذه العملية . وواضح بأن هـذا المقال لايطمح الى ان يحيط بكل جوانب الموضوع لتشعبه وعمقه . وقد حاولنا قدر الامكان الاستناد الى أرقام واحصائيات دقيقة ، واستشهدنا كذلك بما يعترف به اركان الاحتكارات العالمية من حقائق .

١ – طرح ماركس وانجلس ولينين للموضوع :

ان مشكلة وجود فائض لا يمكن ادخاله من جديد في العملية الانتاجية، وهي المسألة الجوهرية التي أدت الى بروز العسكرية كظاهرة اقتصادية، لم تكن معروفة بعد في رأسمالية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . فكون السوق الداخلية والخارجية لاتزال بحاجة شديدة الى السلع والخدمات المطروحة لم يكن ليوجد مسألة انفاق فائض رؤوس الأموال . من هنا فإن ماركس وانجلس لم يتناولا وجود فئة اجتماعية متميزة هي القوات المسلحة الا من وجهة نظر سياسية واجتماعية . لقد ابرزا وبصورة واضحة دور القوات المسلحة داخلياً (لتدعيم سيطرة الرأسمالية وقمع التحركات الشعبية) كما بيّنا طفيلية هذه الطبقة باعتبارها جهازاً يرتبط بالدولة التي هي جسم طفيلي غير منتج (١) يعيش على الضرائب . وقد لاحظ انجلس خصوصاً أهمية الجيش في المنافسة بين الدول الكبرى (فالمنافسة بين الدول المختلفة تجبرهـا ـ الدولة ـ على صرف المزيد من المال كل عام على الجيش والبحرية والمدفعية : الخ .. معجلة هكذا اكثر فأكثر في انهيارها المالي) (٢).

---

(١) لاحظ على سبيل المثال أعمال ماركس : رأس المال ، مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، نقد فلسفة الحق عند هيغل (غير مترجم للعربية) ـ وأعمال ماركس وانجلز، العائلة المقدسة (غير المترجم) . وأعمال انجلز : انتي دوهرنغ ، أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة .

(٢) فردريك انجلز . انتي دهرنغ . ترجمة د . فؤاد أيوب ـ دار دمشق .

ورغم ان لينين قد عاصر بدايات التحول الرأسمالي الى مرحلته الاحتكارية وأوضح بدقة أهمية هذا التحول فإن ظاهرة عسكرة الاقتصاد لم تكن لتبرز بعد . لقد بين لينين اهم سمات الرأسمالية الاحتكارية وركز على صفة التداخل بين رأس المال المصرفي (المالي) ورأس المال الصناعي، واوضح اثر ذلك التحول على الدولة وأجهزتها (فالتحول في البنية التحتية للمجتمع لابد وان يتبعه تحول مماثل في البنية الفوقية) . وقد ابرز ولأول مرة دور القوات المسلحة في عملية النهب الاستعماري للعالم الثالث (ولا مجال للشك اذن في ان انتقال الرأسمالية الى درجة الرأسمالية الاحتكارية مرتبطة باحتدام الصراع من أجل اقتسام العالم) (١) . وافرد مجالاً كبيراً لتحليل أهمية تداخل رأس المال الاحتكاري مع أجهزة الدولة متطوراً الى رأسمالية الدولة الاحتكارية. اي ان علاقة الدولة برأس المال الاحتكاري لن تكون علاقة اخضاع بسيطة، بل هي تفاعل وتداخل بين الاثنين . (ان الامبريالية على وجه الخصوص وهي عصر رأس المال المصرفي وعصر الاحتكارات الرأسمالية العملاقة، وهو عصر تتحول فيه رأسمالية الاحتكار الى رأسمالية احتكار تابعة للدولة ، يبين اشتداد قوة جهاز الدولة على نحو استثنائي وتوسع جهازها البيروقراطي والعسكري على نحو لم يسبق له مثيل) (٢) .

٢ – تحليل روزا لكسمبورغ الاقتصادي للعسكرية

يكتسب تحليل المفكرة الثورية روزا لكسمبورغ أهمية خاصة لأنه اول تحليل اقتصادي لعملية التراكم الرأسمالي بعد ماركس . ولم يتعرض كتاب

---

(١) لينين – الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية – دار التقدم – موسكو ص ١١٠

(٢) لينين – الدولة والثورة – دار التقدم – موسكو – ص ٤١ .

اقتصادي لمحاولات الطمس والنسيان كما تعرض كتابها (تراكم رأس المال) (١) . فقد افردت المؤلفة فصلا كاملا في كتابها عن العسكرية معتبرة إياها جانباً من جوانب عملية التراكم الرأسمالي. فقد ادخلت ولأول مرة الدولة ومؤسساتها كقوة مستهلكة للسلع والخدمات واوضحت دور العسكرية في تاريخ الرأسمالية منذ مرحلة التراكم البدائي حيث كانت وسيلة لاحتلال العالم الجديد والبلدان المتخلفة ومن ثم لإخضاع المستعمرات وتدمير النظام الاجتماعي وبنية المجتمع البدائي فيها بحيث يسهل استغلال وسائل انتاجها ، ويدخل التبادل السلعي بالقوة ، وتحول المواطنين الى بروليتاريا باجبارهم على العمل كأجراء. واخيراً فان العسكرية هي سلاح في الصراع التنافسي بين البلدان الرأسمالية على المناطق غير الرأسمالية من العالم (٢) .

غير ان للعسكرية دور رئيسي وهام من الناحية الاقتصادية البحتة . اذ انها وسيلة رئيسية من وسائل تحقيق فائض القيمة ، تقول لكسمبورغ (عند بحثنا في مسألة من يشتري هذا الركام الهائل من المنتجات الحاوي على فائض القيمة اهملنا دائماً اعتبار الدولة واجهزتها كمستهلكين) فالمسألة هنا ليست مجرد فرض ضرائب مباشرة على العمال بحيث يقل مقدار الطلب على السلع الاستهلاكية بنفس نسبة الزيادة في الطلب لدى الجيش ومن ثم لايزيد الطلب الكلي على سلع الاستهلاك . بل ان نقص القوة الشرائية للعامل سيؤدي في النهاية الى نشوء طلب جديد وبنفس المقدار ، وهو الطلب على الاسلحة . (وهنا تنسى الكاتبة وجود حصة من تمويل

---

(١)- Rosa luxemburg , the accummulation of capital . Routl edge , London .1963

(٢) المصدر السابق . ص ٤٥٤

الجيش لتأمين استهلاك الجنود والضباط) . ولنفرض ان القدرة الشرائية للعمال ستنقص بمقدار (١٠٠) وحدة . ولاشباع هذا الطلب الجديد فان فرعاً انتاجياً جديداً سينشأ حسب مخطط ماركس على الوجه التالي :

٧١٫٥ وحدة (C) رأس مال ثابت + ١٤٫٢٥ وحدة (V) رأس مال متغير + ١٤٫٢٥ وحدة (S) فائض قيمة = ١٠٠ وحدة .

أي ان ٧١٫٥ وحدة ستذهب لانتاج وسائل الانتاج ومن هنا اعتبرت العسكرية وسيلة في التراكم، وستذهب حوالي (١٣) وحدة لتأمين معيشة العمال وليس ١٤٫٢٥ تبعاً لنفس الضرائب المفروضة . ان هذه الـ (١٠٠) وحدة الموضوعة تحت تصرف الدولة مشكلة " الطلب على التسلح انما تعني سوقاً جديدة وقوة شرائية جديدة . ومهما كان المصدر الذي تقطع منه الـ (١٠٠) وحدة هذه، سواء أكان العامل في حالة الضرائب المباشرة ام المستهلك في حالة الضرائب غير المباشرة، فان النتيجة النهائية المتمثلة في تقلص انتاج وسائل المعيشة لن تكون خسارة للسوق - بالنسبة لرأس المال ككل - وانما ادخار في انتاج تكاليف فائض القيمة . وهنا نستطيع ان نستدرك بالنسبة لرأي لكسمبورغ حيث ان هناك ارتفاعاً موازياً - وان لم يكن مساوياً - في الطلب على سلع الاستهلاك يتولد من خلال انماء وادامة جيش محترف .

أما المصدر الثاني للقوة الشرائية للدولة والمستثمر في التسلح فهو يختلف جوهرياً عن الوحدات المقتطعة من العمال من حيث انه يمول من البرجوازية الصغيرة المتمثلة في الحرفيين والفلاحين . فهذا المقدار وهو لايزال لدى الفلاح يعادل السلع التي تم انتاجها ويحتفظ بقيمته التبادلية في الانتاج السلعي البسيط (اي انه لم ينفصل عن رأس المال اثناء دورانه كما هو الحال في الوحدات الـ ١٠٠ السابقة) . لقد

استولت الدولة اذن على جزء من القوة الشرائية التي كان مفروضاً أن تساهم في التراكم الرأسمالي . وسينتج الآن رأس المال كمية من ادوات الحرب تعادل كمية وسائل الانتاج والمعيشة المقتطعة من المستهلكين الفلاحين . غير ان التغير الذي يطرأ هو اعمق من ذلك بكثير : فالواقع ان نظام الضرائب يساهم بحصة كبيرة في ادخال الاقتصاد السلعي بالقوة بين صفوف الفلاحين ، اذ يجد المزارع نفسه مضطراً تحت ضغط الضرائب الى تحويل المزيد من انتاجه الى سلع . فالضرائب تضغط لادخال ناتج الاقتصاد الريفي الى التداول بحيث يضطر الفلاح الى ان يصبح مستهلكاً للانتاج الرأسمالي . فاذن تم اطلاق قدر من المال ليشكل طلباً فعالاً وفرصاً للاستثمار بدل أن يتم اكتنازه من قبل الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى .

٣ – تحليل العسكرية في مرحلة مابعد الحرب الثانية :

لقد كانت فترة الكساد الاقتصادي الكبير في الثلاثينات وما تبعها من تحولات في بنية الرأسمال الاحتكاري فترة امتحان عسير للاقتصاد الماركسي . اذ ظل هؤلاء الاقتصاديون الماركسيون عاجزين عن تحليل وتفسير هذه التحولات بسبب قصورهم الذاتي بالطبع – . من هنا تبرز أهمية الانجاز الذي قام به الاقتصاديان البارزان بول باران وبول سويزي (١) . ان تحول وظيفة العسكرية بين مرحلتي النظام الرأسمالي تبرز بوضوح في عنوان الفصل الذي أفرده هذان الكاتبان (العسكرية وسيلة لامتصاص الفائض) بينما كان العنوان الذي خصصته لكسمبورغ (العسكرية وسيلة للتراكم) . ان ازدياد كمية الفائض هذه الزيادة الهائلة قد جعل الرأسمالية عاجزة عن تصريفه في عمليات انتاجية جديدة . ففي الظروف

---

(١) Monopoly Capital , Paul Baran Paul Sweczy , Pelicar Books , 1967

الطبيعية لايمكن استهلاك هذا الفائض المتعاظم، ولكن ميل رأس المال الاحتكاري الى خلق هذا الفائض يجعل انتاجه عسيراً ان لم يكن مستحيلا في الظروف الطبيعية كذلك . ومن هنا ينشأ هـذا النزوع نحو الاستخدام المنقوص للموارد المتوافرة ومعه الميل الى الركود . على هذا فإن تصريف هـــذا الفائض يعد امراً مصيرياً للنظام استطاع كينز ان يؤمن حلا مؤقتاً له عن طريق زيادة الانفاق الحكومي (ولا سيما في المجال العسكري)، حيث يمكن استهلاك قدر كبير من هـــذا الفائض . اذن فرأسمالية الدولة الاحتكارية ـ التي لاحظ لينين بداياتها ـ هي المنفذ الوحيد لاستمرار الرأسمالية على وجه الحياة .

انطلاقاً من هذا التمهيد سنحاول أن نفهم مـا يدور من ظواهر في البلدان الرأسمالية (وبصفة خاصة الولايات المتحدة) بعيداً عن التحليلات السطحيـــة الديماغوجية حول (غباء المسؤولين) و (عدم معرفتهم لمصالحهم الحقيقية) .. الخ. ففي معركته الانتخابية عام ١٩٦٤ قال جونسون (ثمة من يريد توسيع المعركة، ويريد أن نرسل جنوداً امريكيين ليقوموا بما يجب ان يقوم به الاسيويون . وثمة من يدعونا الى قصف فيتنام الشمالية . لن نذهب الى الشمال ولا الى الجنوب . لن نرسل مقاتلين امريكيين ليفعلوا على بعد آلاف الكيلو مترات ما ينبغي ان يفعله الآسيويون من اجل انفسهم) .(١)

ولكن لم تمض بضعة اشهر على ذلك حتى كانت القاذفات الامريكية تدك قوى فيتنام بوحشية .

كيف نفهم مثل هذا التناقض ؟

---

(١) مأخوذ من كتـــاب : الامبراطورية الامريكية ـ كلود جوليـــان ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .

ان فهم دور القوات المسلحة في النظام الرأسمالي يحتم علينا أن نركز على الأهمية الجوهرية للصفة العالمية للنظام الرأسمالي ــ وهو ما فعله لينين ــ فوجود هــذا التسلسل الهرمي من المتروبولات المسيطرة في القمة وما يتبعها من شبكة معقدة من المتروبولات في الصفوف الثانية والثالثة .. الخ حتى نصل الى القاعدة حيث نجد المستعمرات ــ انوجود هذه الشبكة المعقدة للعلاقات الاستغلالية بين القاعدة والقمة تحتم على المتروبولات العليا ان تحافظ على قوات مسلحة ضخمة تتناسب ومركزها الهرمي وذلك للمحافظة على مركزها الاستعماري بل وتحسينه ان امكن. من هنا يمكن للمرء ان يدرك سبب تنامي قوة الولايات المتحــدة العسكرية في الفترة بين (١٩١٤ ــ ١٩٤٥) على حساب الاعداء والحلفاء معاً حتى وصلت إلى مركز الزعامة المطلقة . لقد ارتبط هذا الصعود في هرم المتروبولات الاستعمارية بارتفاع نسبة نفقات الفضاء والدفاع في الولايات المتحدة الى (١٠ ــ ١٥ ٪) من الميزانية الاتحادية في الفترة بين (١٩٣٠ــ١٩٤٠) ومن ثم الى (٥٠ ــ ٦٠٪) في الاعوام (١٩٦٠ ــ ١٩٦٥) (١٠) ولئن كان هذا كافياً لتفسير اسباب ارتفاع ميزانية التسلح حتى نهاية ١٩٤٥ فعلينا الآن ان نبحث في اسباب هــذا الارتفاع المتزايد بعد ١٩٤٥ رغم انمركز الولايات المتحدة القيادي في المتروبول الاستعماري لم يعد محل منافسة .

ان احد أهم الظواهر المستجدة في مرحلة مابعد الحرب هو بروز المعسكر الاشتراكي . ورغم اعتراف احد الصحفيين المقربين للدوائر الرأسمالية بأن (الشيوعية

---

(١٠) الأرقام مأخوذة عن : الامبريالية عام ١٩٧٠ ــ بيير جاليه ــ دار الحقيقة بيروت ــ ١٩٧٠ ــ ترجمة فؤاد مرقص .

تزدهر بالسلام وتريد السلام وتنتصر بالسلام) (١) او كما يقول باران وسويزي (فالعسكرية والغزو غريبان تماماً عن العقيدة الماركسية وليس في المجتمع الاشتراكي طبقة او فئة تستفيد من اخضاع الشعوب والامم الاخرى - كما هو الحال بالنسبة للرأسماليين الكبار في البلدان الاستعمارية) . (٢) . فلا بد ان نبحث في سبب آخر غير (عدوانية) الاتحاد السوفيتي لكي تدفع الرأسماليين الى محاولة منع انتشار الاشتراكية وحصرها في اضيق نطاق ممكن لكي يسهل محوها من على وجه الارض . لقد بدأ دور (الشرطي العالمي) للولايات المتحدة في الظهور عام ١٩٤٧ نتيجة الازمة الاقتصادية الحادة التي مرت بها بريطانيا وادت الى سحب دعمها للحكومة اليمينية في اليونان والتي كانت تحتضر تحت ضربات الثوار ، فاستجابت الولايات المتحدة على الفور باعلان مبدأ ترومان الشهير في (١٢ /٣/ ١٩٤٧) والذي اعتبر العالم كله منطقة نفوذ اميركية . واستكمالاً لهذا المضمون (محاربة الاشتراكية) تم ربط البلدان الاوربية والمراكز الرأسمالية باتجاه الولايات المتحدة عن طريق مشروع مارشال وتم نسج شبكة من الاحلاف والقواعد العسكرية حول حدود المعسكر الاشتراكي .

ولم تحل سنة ١٩٥٩ حتى كان لدى الولايات المتحدة ٢٧٥ قاعدة رئيسية في ٦٤ بلداً، وما يزيد عن ١٤٠٠ قاعدة صغيرة يشغلها مايقرب من المليون جندي امريكي وتكلف الولايات المتحدة حوالي الـ ٤ بلايين دولار سنوياً، بعد ان كانت القوات المسلحة الاميركية متركزة في ٣ بلدان اجنبية فقط قبل الحرب الثانية .

---

(١) انظر : D. F. Fleming , the Cold War and Its Origins (1917 - 1960) London 1961 Vol . I

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ - باران وسويزي

ولم يكن صدفة ان يواكب الغزو العسكري للبلدان الاجنبية غزو اقتصادي مواز من جانب رؤوس الاموال والاحتكارات والمصارف الاميركية، فارتفع عدد فروع المصارف الامريكية في الخارج من «٩٥» فرعاً عام ١٩٥٠ الى ٢٩٨ عام ١٩٦٧، منها ٢٥٩ فرعاً لثلاثة مصارف فقط . ان هذه الارقام تأتي لتؤكد التحليل اللينيني قبل نصف قرن وتعمقه حول اندماج رأس المال الاحتكاري برأس مال الدولة الاحتكارية واندماج رأس المال المصرفي برأس المال الصناعي .

هنا يمكن للمرأ ان يتساءل حول امكانية تعامل المؤسسات الرأسمالية مع البلدان الاشتراكية ـ وهو مايحدث مع الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية مؤخراً ـ. ان هذا صحيح، ولكن لنعد الى تقرير مجلة (U.S.News and World Report) المقربة من الاوساط الحاكمة (١) : «ان الاسواق الكبيرة والحالية فيما وراء البحار هي التي يتوجه اليها رجال الاعمال . الاسواق ذات مئات الملايين من الزبائن الذين تتزايد قدرتهم على شراء كل انواع المنتجات والخدمات . ولاقتناص هذه الاسواق تقوم الشركات الامريكية ببناء وتوسيع مصانعها في كل انحاء العالم» .

يضاف الى عملية البحث عن الأسواق تفاقم حاجة الولايات المتحدة الى المواد الأولية . فبعد ان كانت تنتج كمية من المواد الأولية تفوق حجم استهلاكها الداخلي بنسبة ١٥٪ في عام ١٩٥٠، تحول هذا الفائض الى عجز في عام ١٩٦٠، فأخذت الولايات المتحدة تستهلك ١٠٪ من المواد الأولية أكثر مما تنتج . ويقدر الخبراء ان تزيد حاجة الولايات المتحدة عام ١٩٧٠ بـ ٢٠٪ أكثر من انتاجها من المواد الأولية .

---

(١) عدد ١/٦/١٩٦٤ .

ويلخص بيير جاليه هذه الأرقام في الجدول التالي(١) :

الفترة	صافي استيراد المواد الأولية -٪ من الاستهلاك
١٩٠٠ - ١٩٠٩	- ١٫٥ ٪
١٩٢٠ - ١٩٢٩	+ ٠٫٧ ٪
١٩٤٥ - ١٩٤٩	٥٫٥ ٪
١٩٦١	١٤٪

ويلخص هاري ماغدوف (١) حاجة القوى الاستعمارية الى المؤسسات العسكرية في حماية المنابع الحالية أو القادمة للمواد الأولية وتأمين سلامة الطرق التجارية والدفاع عن الأسواق والتوظيفات الخارجية والحفاظ على مستوى التأثير للأعمال الامريكية وخلق زبائن جدد في الخارج وامكانيات توظيف جديدة من خلال المساعدات العسكرية والاقتصادية للخارج ، وبشكل عام للحفاظ على بنية السوق الرأسمالية في العالم وذلك لمصلحة الولايات المتحدة المباشرة .

ان المبادلات الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية أمر مسلم به ، ولكن البلدان الاشتراكية ستستغني بالطبع عن استيراد الكثير من الكماليات اضافة الى ارسائها لقواعد التصنيع التي توفر لها اكتفاء داخلياً في الكثير من السلع . وعلاوة على هذا ففي نطاق التبادلات فإن البلدان الاشتراكية لا يمكن ان توافق على شروط بيع كالتي توافق عليها البلدان المتخلفة . ويضرب باران وسويزي مثلاً على

(١) بيير جاليه - المصدر السابق ص ٢٥٩ .

(٢) هاري ماغدوف ، تحليل الامبريالية الأمريكية ، دراسات عربية ، تشرين الأول ١٩٦٨ .

ذلك هو كوبا (١) : فقد قدرت ملكية شركة ستندرد اويل اوف نيوجرسي في كوبا بـ ٦٢ مليون دولار . اضافة الى هذا فقد كانت كوبا تؤمن البترول من مشترياتها من فرع نفس الشركة في فنزويلا وبالأسعار التي يحددها كارتيل النفط العالمي . وبعد الثورة تم تأميم ممتلكات الشركة بدون تعويض ، وهكذا فقدت الشركة الفنزولية سوقها في كوبا . وبسبب قرب النفط الفنزولي الى كوبا كان من الممكن ان تستمر هذه الأخيرة على شراء النفط الفنزولي لولا الخطوات العدوانية التي اتخذتها الامبريالية الامريكية . ولكن كوبا ما كانت لتشتري النفط بنفس مستوى الأسعار الجائر مما يقلل من ارباح الشركة لا بالنسبة لكوبا فقط، بل بالنسبة للاسعار العالمية التي يفرضها الكارتيل .

من هنا تعمد الامبريالية لحماية الطغم الحاكمة والحليفة لهـا عن طريق المساعدات العسكرية. وفي هذه الحماية فانها تحمي عمليات النهب التي تقوم بها. وهذا ما حدث في لبنان ١٩٥٨ وتايلند ١٩٦٢ والدومنيكان ١٩٦٥ وكوبا ١٩٦١ وأخيراً الهند الصينية.

فتقديم العون الى بلدان العالم الثالث ـ وبصفة خاصة العسكري منه ـ ليس لمواجهة خطر (الهجوم السوفيتي أو الصيني) كما يدعي الرسميون الامريكان، لأنه من المعروف انه لو وجد مثل هذا الخطر حقاً لما كان بامكان أي بلد مجابهته سوى الولايات المتحدة نفسها. وإن مثل هذه التجهيزات التقليدية لحلفاء ضعفاء لن تزيد من قوة الولايات المتحـدة بل على العكس . والخطر الحقيقي الذي تخشاه الولايات المتحدة إنما هو الثورات من الداخل ،وهذا مايعترف به الكثير من رسميي ومقربي الدول الامبريالية . ففي عصر توازن الرعب النووي لا يمكن ايقاف ما

(١) باران وسويزي ـ المصدر السابق ص ٢٠٥ و ٢٠٦ .

يسمى بالخطر الشيوعي عن طريق المدفعية والدبابات،ولكن الامبريالية لن تتخلى بالطبع عن سياسة الحروب المحدودة الكثيرة . وتعترف نيويورك تايمس بـ « ان الحكومة ترى امكانية اشتراكنا في حروب محدودة وعلى جبهات اخرى في مشاكل مثل فيتنام الجنوبية كما لو تعرضت ايران الى ضغط روسي (١) » فالجيش دائماً في خدمة الاحتكارات، او كما يعبر جون لو كتون العضو البارز في شركة جنرال موتورز (هكذا فان تفتيشنا عن الارباح يضعنا على خط السياسة الوطنية، فتقوية تجارتنا الدولية هي وسيلة لتقوية العالم الحر في الحرب الباردة التي يجابه فيها الشيوعية) (١). ونصل أخيراً الى الاستنتاج بأن مناهضة الشيوعية ـ كما يقول غارودي (١) ـ تبرر الاستثمارات العسكرية الاسطورية. وان سباق التسلح هو الذريعة الرئيسية لمقتضيات نمو الشركات الضخمة، ولكن غارودي يصل الى استنتاج خاطىء ومنحرف في وقت واحد حين يتصور بأن في امكان الاحتكارات الامريكية ان تتحول الى ميادين الصناعة المدنية (٤) . فهو لا يرى في العسكرية الا صفة عرضية للرأسمالية يمكن ان تنمو وتظل على قيد الحياة بدونها . بينما نجد ان باران وسويزي يفندان امكانية دخول الانفاق الحكومي في مجال الصناعات المدنية لأن هذه النشاطات ستتضمن اما المنافسة مع المصالح الخاصة او الاضرار بالوضع الطبقي وامتيازات الطغمة الحاكمة . ولهذا السبب فستنشط المعارضة كلما توسعت هذه النشاطات . اما بالنسبة لبناء مؤسسة عسكرية فهي لا تتضمن منافسة مع مصالح خاصة ، كما ان الجيش يلعب دور الزبون المثالي للمصالح الخاصة باتفاقه

(١) عدد ٢٣/٢/١٩٦٤ .

(٢) هاري ماقدوف ـ المصدر السابق .

(٣) روجيه غارودي ـ منعطف الاشتراكية الكبير ـ دار دمشق ص٥٩ .

(٤) غارودي ـ ص ٧٨ .

بلايين الدولارات سنوياً وبالشروط والاسعار التي يطلبها البائع . ولما كان الجزء الاكبر من التجهيزات الرأسمالية المطلوبة ليست لها استعمالات بديلة،فان تكاليفها عادة تدخل ضمن اسعار الناتج النهائي ، ومن هنا فان مشاريع انتاج الاسلحة خالية من المخاطر تقريباً . ولتوضيح مدى المثالية التي يتحلى بها هذا الزبون (الجيش) فنعود الى جريدة الاوساط الحاكمة «النيويورك تايمس» لنرى مدى الارباح التي تحققها المؤسسات الصناعية الحربية «١» : « في شهادة أمام الكونغرس تبين أن شركة البوينغ الامريكية تعاقدت مع حكومة الولايات المتحدة في الفترة بين ١٩٥١ – ١٩٦١ على انتاج طائرات « بومرك » وقاذفات القنابل ب – ٥٢ و ب – ٥٤ ومصفحات ك س – ١٣٥ وغيرها من المشاريع بما قيمته «١١٨١٩» مليون دولار. وكانت الارباح الصافية لهذه الشركة – ما تعترف به الشركة فقط – « ٩٠٨٧٠٠ » مليون دولار. كما ان نسبة الارباح الى صافي استثمار الشركة السنوي يتراوح مابين ٣٦٪ في ١٩٥١ و١٩٥٣ ، و ٦و١٠٨٪ في ١٩٦٠» وهذه النسبة من الارباح الى صافي رأس المال المستثمر يندر ان تبلغها أية صناعة مدنية كما سنبين فيما بعد .

اما بالنسبة لشركات صناعة الاسلحة بصورة عامة فقد ارتفعت ارباحها في الفترة بين ١٩٥٠ – ١٩٥٩ بنسبة ٥٤٪ بينما ازدادت في الفترة نفسها مبيعات « ١١ » شركة احتكارية كبرى بنسبة ١٨٣٪ .

واذا اقتطفنا بعضاً من الجدول المهم الذي نشره هاري ماغدوف «٢» للاحظنا :

---

(١) عدد ٢٣/٥/٩٦٢ .

(٢) هاري ماغدوف – المصدر السابق .

النسبة المئوية من الانتاج الاجمالي المخصصة للصادرات والمشتريات الحكومية الفدرالية لسنة ١٩٥٨ .

فرع الصناعة	التصدير	مشتريات الحكومة
مدفعية ومنتجات تابعة	١٫٧٪	٨٦٫٧٪
صناعات جوية وبحرية ومتفرعاتها	٦٫١٪	٨٦٫٧٪
آلات علمية وأدوات مراقبة	٧٫٣٪	٣٠٫٢٪

ان النسب المئوية للطلب الاجمالي (مباشر وغير مباشر) والمتمثل بالصادرات ومشتريات الحكومة الفدرالية هي بأغلبيتها الساحقة اهداف عسكرية، أما الصناعات الأخرى (عدا التجهيزات والآلات العسكرية) فتشكل الصادرات والمشتريات العسكرية نسبة مئوية منها تتراوح بين ٢٠ — ٥٠ ٪ من الطلب الاجمالي ، فللمصالح الاقتصادية في الخارج (عسكرية ومدنية) أهمية كبيرة في الحيلولة دون تحول الازمات الصغيرة الى أزمات اقتصادية كبرى . وهي بالتالي تستخدم كدعم لاحدى ركائز الاقتصاد التي هي سلع التجهيز ، وذلك لامتصاص ٣٠ — ٥٠ ٪ من انتاجها . ان هذه النسبة من الزيادة على حجم الأعمال الاعتيادية تقود الى زيادة في الارباح بنسبة مئوية ارفع من ذلك بكثير .

ان الاحصاء السابق والعائد الى ١٩٥٨ يحتم ان نضيف اليه بعض الارقام المتوفرة لنا والعائدة الى سنوات مابعد ١٩٦٥ : ففي أشهر الصيف الثلاثة من عام ١٩٦٥ زادت طلبات الدولة على منتجات الصناعة الخاصة التي تزود الجيش بمواد الحرب بنسبة ٥٠٪ عن الفترة نفسها من العام السابق فبلغت ٩٦٥ مليون دولار مقابل ٦٢٥ مليون . ثم تضاعفت هذه الأرقام عام ٩٦٦ . ويشير

تقرير صادر عن ناشيونال ستي بنك بتاريخ تشرين الاول ١٩٦٥ الى ان عشرين شركة صناعية للطائرات قد حققت في النصف الاول من عام ١٩٦٥ ارباحاً أضافية تقدر بحوالي ١٦٠ مليون دولار . وان ٦٩ شركة أخرى تنتج آلات كهربائية والكترونية حققت أرباحاً اضافية كذلك تقدر بـ ٤٣٥،٥ مليون دولار، كما حققت مؤسسة ترميدور التي تنتج الصواريخ ارباحاً نسبتها ١٥٥٪ الى الارباح العادية . ويقدر بان ١٠٪ من أرباح شركة جنرال الكتريك لعام ٩٦٦ تعود الى الحرب الفيتنامية (١) . اما شركة دوغلاس التي احتلت المركز الاول في تنفيذ العمليات العسكرية عام ١٩٦٧ فقد بلغ حجم العقود التي وقعتها مع الحكومة (٢١٠٠) مليون دولار. وحصلت شركة لوكهيد ـ ايركرافت لصناعة الطائرات في الفترة بين ٩٦٢ ـ ٩٦٨ على عقود عسكرية قيمتها (١٠٦٠٠) مليون دولار ، وتبلغ نسبة مبيعات هذه الشركة للحكومة الامريكية من اجمالي مبيعاتها ٨٦٪ . لقد كرست الولايات المتحدة في الفترة بعد ١٩٤٤ مبلغ تريليون دولار (مليون مليون) لشؤون الأمن القومي، انفق نصفها في عهد كندي وجونسون (حتى ١٩٦٨) (٢) . وتذكر مجلة نيوزويك بان مشتريات البنتاغون عام ١٩٦٩ بلغت ٧ بلايين دولار من الطائرات ، و ٢،٩ بليون من الذخائر ، و ٨٩٨ مليون من السفن . والأمر المذهل بالنسبة الى التساهل مع الشركات هو ماتذكره نفس هذه المجلة من ان ٩٠ بليون دولار قد تم انفاقها في السنوات الأخيرة على أسلحة عفى عليها الزمن قبل ان ترى النور واضطر البنتاغون إلى الاستغناء عنها بعد ان كانت الأموال قد صرفت الى مستحقيها .

---

(١) الأرقام عن : جميل شرف ـ محاولة في فهم الحرب الفيتنامية ـ دراسات عربية ـ كانون الثاني / ١٩٦٩ .

(٢) الارقام عن D. Ralph Lar, Arms Farm, New York 1960

في الجدول التالي يمكن ان نفهم مدى الأرباح التي تحصل عليها احتكارات الأسلحة . فهو يجري مقارنة بين أرباح أكبر ١٥ شركة متعاقدة على الانتاج الحربي الى رأسمالها المستثمر مع أرباح أكبر ٥٠٠ شركة صناعية مدنية الى رأسمالها المستثمر (١) .

	١٩٥٧	١٩٦٠	١٩٦١
١٥ شركة صناعية حربية	١٧٫٢	١١	١٢٫١
٥٠٠ شركة صناعية مدنية	١١٫٢	٩٫١	٨٫٣

ففي الوقت الذي تتزايد نسبة الارباح المتحققة من الانتاج الحربي نلاحظ تناقصاً في ارباح الانتاج المدني .

هذا فيما يخص الارباح التي تحققها المؤسسات الاحتكارية من التعامل مع القوات المسلحة . وعلينا الآن أن نبين الأثر الثاني لهذه العمليات . ان تساهل المؤسسة العسكرية في التعامل مع احتكارات الاسلحة يعود كذلك الى تطلع الضباط عادة الى اشغال وظائف مربحة في مصانع الاسلحة بعد التقاعد. ويكفي أن نبين بأنه في عام ١٩٦٠ قام ٧٢٠ من اكبر مصانع الاسلحة باستخدام ١٤٢٦ ضابطاً متقاعداً ، ٢٥١ منهم هم جنرالات وأميرالات متقاعدين (٢) . اما تقرير السيناتور وليم بروكس ماير فيبين بأنه في الفترة ١٩٥٩ — ١٩٦٩ ازداد عدد كبار ضباط الجيش المتقاعدين العاملين في مؤسسات صناعة الأسلحة من ٧٢١ الى ٢٠٧٢ .

(١) الجدول مأخوذ عن « العسكرية الامريكية » فيكتور بيرلو ، ترجمة د. سامي منصور . دار العودة بيروت — ١٩٦٨ .

(٢) الارقام عن Oliver. c. Cox. Capitalism of American Leadership . New York, 1962 p. 118

يضاف الى ذلك وجود ١٣٩ نائباً وعضواً في مجلس الشيوخ كلهم أعضاء في شركات صناعية عسكرية .

هل نقيس هذه الأرباح التي تحققها المؤسسات الحربية بالاكتفاء بالقاء اللوم على الطغمة الحاكمة المتواطئة مع هذه المؤسسات ، وهو ما يفعله بعض السذج، ام ندرس أسباب هذه الظاهرة ، اي ظاهرة توسع الإنتاج العسكري في علاقتها مع باقي افراد المجتمع ؟

يقول بول باران وبول سويزي في كتابهما القيم (ص ٢٠٨) : ومن غير المعقول ان نتصور بان الطغمة الحاكمة فقط هي التي تحبذ التوسع السريع في الانفاق العسكري. فلو أننا افترضنا استمرار وجود رأس المال الاحتكاري كنظام، بعجزه الواضح عن استغلال امكانياته للأهداف السامية والإنسانية، فعلينا ان نقرر الاختيار بين البطالة الجماهيرية واليأس المصاحب لفترات الكساد، وبين الاستخدام الواسع نسبياً والرفاه النسبي الذي امنته الميزانيات العسكرية الضخمة في الأربعينات والخمسينات . ولما كان معظم الأمريكيين ـ بما في ذلك الطبقة العاملة ـ تفترض بقاء النظام الرأسمالي الاحتكاري كأمر بديهي، فمن الطبيعي ان يفضل الحالة الأكثر ربحاً وفائدة لهم وهي الحالة الراهنة . ولأجل ان يوضع هذا الاختيار بصورة عقلانية فقد سلموا بالايديولوجية الرسمية المعادية للشيوعية والتي تبرر التوسع اللامحدود للمؤسسة العسكرية .

ويضيف (Sumner Slichter) (١) بأن الحرب الباردة تزيد من الطلب على السلع، وتساعد على الإبقاء على مستوى استخدام عال ، وتعجل التقدم العلمي . وبهذا تساعد البلد على رفع مستوى معيشته . ويضيف قائلا : يجب ان

(١) نقلاً عن D. F. Fleming op cit.

نشكر الروس الذين ساعدوا الرأسمالية على العمل بصورة احسن من اية فترة سابقة .

فلم يعد سراً ان نسبة كبيرة من التطورات التكنولوجية الرئيسية كانت نتيجة للحرب الباردة او لسباق التسلح، بل ان الاقتصادي النمساوي جوزيف ستاينل يقول : (ان المرء يشك في امكانية بقاء الرأسمالية بمثل هذه الحيوية التي تبدو بها من دون الحرب) (١) .

أما بالنسبة لمعدلات الاستخدام فيكفي ان نذكر بأن نسبة البطالة بلغت في امريكا في العام ١٩٣٩ : ١٧،٢٪ من مجموع القوى العاملة، بينما لم تزد في عام ١٩٤٤ ونتيجة للحرب عن ١،٢٪ . ومن هنا ندرك لماذا لم تهبط ميزانية التسلح بعد انتهاء الحرب. فمن غير المعقول ان يعاد تسريح الـ (١٠) ملايين عامل الذين تم استخدامهم في السنوات الخمسة الأخيرة للحرب . لقد جاءت نظرية (الاستخدام التام) لكي تخرج الرأسمالية من حالة الاحتضار. ولا نجانب الصواب اذا قلنا بأن نفقات التسلح ترتفع بارتفاع نسبة البطالة . وليس عند ظهور « الخطر الشيوعي » المزعوم . ففي كانون الثاني ١٩٥٨ بلغ عدد العاطلين في الولايات المتحدة ٤،٥ مليون فجاء اعلان ايزنهاور برفع ميزانية الدفاع من ٣٥،٦ بليون دولار عام ١٩٥٧ الى ٤٧،٢ بليون في ١٩٥٨ . واضافة الى استخدام هذا العدد الهائل من العمال يجب ان لاننسى عدد الجنود الذين تم استخدامهم في العمليات العسكرية نفسها سواء في فيتنام او في القواعد المنتشرة حول العالم بحيث يزيد عددهم على المليون جندي امريكي .

اذن فان انهاء الحرب الفيتنامية سيعني من بين ما يعنيه إلغاء حوالي ٦٠٪

---

(١) جوزيف ستاينل ، الرأسمالية والعلوم والتكنولوجيا . ترجمة : عصام الخفاجي ، مجلة المعرفة ، آب ١٩٧١ .

من الطلب على منتجات الشركات الصناعية مما يؤدي الى عطالة حوالي الـ (١،٤) مليون عامل صناعي . ان الاستخدام التام لايعطي أثره في هذا المجال فقط، بل إن الأجور التي يحصل عليها رجال القوات المسلحة والموظفون المدنيون في وكالات الدفاع والعمال في المصانع الحربية، والتي تصل الى عشرات البلايين من الدولارات، ينفق أغلبها على سلع وخدمات استهلاكية ،وهو بالتالي يدخل ضمن دورة النشاط الاقتصادي مؤديا الى مضاعفة الأثر الأصلي في الأرباح والاستخدام .

هناك نتيجة أخرى نتوصل اليها من خلال ملاحظتنا الى ان معظم الانفاق العسكري إنما يتم عن طريق الضرائب لأن الانفاق الحربي ليس في معظمه استثماراً يتم امتصاص جزء من المدخرات بواسطته ، وانما يمتص جزء كبير منه من الاموال المخصصة للاستهلاك ـ أي انه اقتطاع من القوة الشرائية لجماهير الشعب ـ فهو اذن في حقيقته استثمار جديد يتم تمويله من الدخل القومي مباشرة. وهذا يؤدي إلى ملاحظة اخرى هي ان المؤسسات المصرفية تنتعش وبدرجة كبيرة من خلال تقديمها القروض لمصانع الانتاج الحربي واقتنائها اسهماً في الكثير من هذه الشركات .

ان عمليات التركيز والتمركز التي تنبأ بها ماركس انما تتم بصورة واضحة وجلية من خلال عسكرة الاقتصاد، يضاف الى ذلك ان عملية التداخل بين رأس المال الاحتكاري ورأسمالية الدولة الاحتكارية تبرز كذلك وبنفس الوضوح. ويكفي أن نشير الى ان الحكومة الاتحادية الامريكية كانت تأخذ على عاتقها بناء المصانع الحربية الكبرى اثناء الحرب الثانية، حتى انها كانت تملك في نهاية الحرب ٩٠٪ من المواد اللازمة لانتاج الطائرات والسفن والمطـــاط والمغنزيوم و ٧٠٪ من انتاج الالمنيوم و ٥٠٪ من انتاج الآلات . وقد تحول معظمها في نهاية الحرب الى القطاع الخاص مما ساعد على مركزة الصناعة ،اذ اصبحت ١٣٥ مؤسسة تسيطر على ٤٥٪

من القطاع الصناعي في الولايات المتحدة وتنتج ما يقرب من ربع صناعة العالم باجمعه ، مع العلم بان الصواريخ والطائرات والاسلحة الاخرى يمكن انتاجها بفاعلية اكثر وبكلفة اقل في مصانع حكومية .غير ان التحول الهائل الى مصانع الشركات الخاصة قد ارتبط بتوسع مماثـــل في الانتاج الحربي ، وفق مصالح المؤسسات الاحتكارية . ولكن هذا لايعني بان الحكومة الاتحادية قد تحولت الى مستهلك فقط لمنتجات هذه المصانع . فاثر صدور قانون لجنة الطاقة الذرية عام ١٩٤٦ تحولت المعامل والمراكز السرية الحكومية الى متعاقدين مع القطاع الخاص لتشغيلها ، وبذلك وضعت معامل ومعدات حكومية تصل قيمتها الى ٧و٥ بليون دولار تحت تصرف هذه المؤسسات ، اضافة الى الاعانات التي تحصل عليها نفس الشركات والتي تصل الى اكثر من ٢و٥ بليون دولار . ويحتكر ٥٠٪ من هـذه الاعمال اربع شركات فقط . يضاف الى ذلك كله منح البحث العلمي وتطوير المبتكرات التي تمر بدون رقابة الكونغرس ، بحيث بلغ ما حصلت عليه شركة جنرال الكتريك وحدها خـــلال السنوات العشر الاخيرة من المنح (٩) ملايين دولار سنوياً . نستطيع القول اذن بان هذه الشركات لاتستثمر في الحقيقة اي شيء من رؤوس اموالها في هذا المضمار .

يمكن ان نلاحظ مدى التمركز الذي وصلت اليه الصناعة الامريكية من خلال بعض الارقام . ففي ما بين ١٩٤٥ – ١٩٤٩ اعطت الحكومة الامريكية عقوداً لشركات انتاج الأسلحة بقيمة ١٧٥ بليون دولار وحصلت (١٠٠) شركة على ثلثي هذه العقود ، بينما كان الثلث الآخر من نصيب (عشر) شركات فقط ، أي ان معدل ما حصلت عليه الشركة الكبرى الواحدة يعادل خمسة اضعاف ماحصلت عليه الشركة الصغرى . واستمر هذا التمركز في صعوده بوتائر عاليـــة .ففي عام

١٩٦١ حصلت (١٠٠) شركة على ثلاثة ارباع عقود انتاج الاسلحة ، عام ١٩٦٢ حصلت ٢٥ شركة على ٥٠٪ منها، وعام ١٩٦٣ حصلت خمس شركات فقط على نصف العقود بما في ذلك عقود انتاج الصواريخ والاقمار الصناعية . ولكن لماذا لاتتكتل المؤسسات الاخرى ضد هذه الحفنة من المؤسسات الكبيرة لمعارضة سياسة التسلح طالما ان الاولى لاتحصل على عقود لانتاج الاسلحة ؟. ان الجواب على هذا السؤال يكمن في نفس جوهر التشكيلة الاقتصادية للمؤسسات الاحتكارية ، ذلك ان جزءاً كبيراً من هذه العقود التي توزع على الشركات الرئيسية « الام » يعاد توزيعه على شركات خاضعة للاولى . فالمؤسسة الام تعهد الى المؤسسات الاصغر بتجهيزها بقطع غيار ووقود .. الخ . مما يشكل مصدراً للربح لهذه المؤسسات ، اضافة الى ان هـــذه الشركات الصغيرة تستطيع عن هذا الطريق فقط ان تواكب بعض التطويرات والابتكارات التي تجري في دهاليز الشركات الكبرى من اجل ان تعمم هذه الابتكارات وتستخدمها في انتاجها الخاص ، لأن المؤسسة المنتجة للصناعات الحربية وبفعل ارتباطها بعمليات البحوث والتطوير التي تؤمنها لها الدولة تكتسب اسبقية كبرى في مجال الصناعة المدنية كذلك . ويبدو هذا واضحاً اذا علمنا بأن الشركات الصناعية التي تحصل على ٨٥٪ من العقود الحربية تحصل في الوقت نفسه ٥٠٪ من ارباح الاعمال المدنية الداخلية و ٨٠٪ من ارباح الاستثمار الخارجي(١). يبقى هنا سؤال تجدر الاجابة عنه : ان ٢٥ من اكبر الشركات الصناعية كانت ارباحها في الاستثمار الخارجي اكبر بمعدل ٢,٥ ـ ٣ اضعاف ارباحها من الانتاج الحربي، كما ان التمركز في الاستثمارات الخارجية هو اكبر بكثير منه في الصناعات الحربية ، فلماذا يتجه الاقتصاد الامريكي نحو العسكرة بدلا من التوجـــه نحو

(١) بيرلو ، المصدر السابق ص ٧٦ .

الاستثمارات الخارجية؟. يمكن ان نجمل الجواب باختصار بان العسكرية هي شرط لازم كما بينا لتوسع واستمرار الاستثمار الخارجي ؛ فالتوظيفات الخارجية تتميز بخاصية عدم التوظيف إلا في المواضع المضمونة حيث تعاو الارباح وتتمتع رؤوس الأموال بأمان اكيد. ومن هنا فان هذه الشبكة العسكرية تؤمن حماية صلبة للاستثمارات الامريكية، ولذا تزيد ميزانية الدفاع الامريكية السنوية عادة عن حجم رؤوس الأموال الموظفة في الخارج . والمثال المجسد لظاهرة التداخل بين نمو العسكرية والتوظيفات الخارجية يبدو واضحاً في تاريخ الولايات المتحدة نفسها ، حيث ان الفترة التي سبقت ١٩١٤ والتي تميزت بكون العسكرية فيها جهازاً ثانوياً كانت مصاحبة لانخفاض حجم الاستثمارات الامريكية الخارجية ، اضافة الى كون الولايات المتحدة في تلك الفترة شبه مكتفية ذاتياً بموادها الاولية .

يبدو وقد احطنا بمعظم جوانب الموضوع ان هناك سؤالاً لا بد من الاجابة عليه وهو : هل يمكن ان تستمر الحال كذلك؟ ولماذا توقفت الميزانية العسكرية عن الارتفاع اذا كان ذلك يساعد على ازدهار الاقتصاد؟ لنعد الى كتاب سويزي وباران (ص ٢١١) حيث يجيبان على ذلك « بأن هناك عائقين امام التوسع، احدهما اقتصادي والآخر عسكري . فالسبب الاقتصادي يتضح بأن الحرب تتحول تدريجياً الى مسألة علم وتكنولوجيا قبل ان تكون مسألة حشود واسلحة (١) . ونتيجة لذلك فقد طرأ تحول حاد على نوعية السلع والخدمات التي تشتريها المؤسسة العسكرية . فالنسبة الاكبر تذهب الى البحوث والتطوير والهندسة والصيانة ، والحصة الاقل تذهب الى التجهيزات التي تتطلب قوة عاملة كبيرة « الدبابات والمدرعات ... الخ . » . اي ان كمية معينة من الانفاق

(١) هذا القول بالطبع فيما يخص الحروب بين الدول الكبرى ، وليس تأكيداً لأقوال بعض الانهزاميين العرب .

العسكري ستؤدي الى استخدام عدد اقل بكثير مما كانت تستخدمه في السابق. وبعبارة اخرى ان الأثر الأكبر المرجو من العسكرة على الاستثمار والاستخدام لن يكون بنفس الدرجة. يضاف الى ذلك ان تطبيق الكثير من الصناعات الحربية على المجالات المدنية سيزيد من الانتاجية مقللا بذلك الطلب على العمال .

اما العائق العسكري فيبدو من خلال ضخامة الاسلحة الفتاكة التي ستؤدي الى تقليل امكانيات الاحتكاك بين القوتين الرئيسيتين في العالم مما يناقض الغاية التي تطورت الاجهزة الحربية من اجلها . وهذا لايعني بالطبع تقليل امكانيات احتمالات الحروب المحدودة في المستقبل والتي تستند على الاسلحة التقليدية (امكانيات التدخل لحماية اسرائيل مثلا في حالة تهديدها جدياً) .

والعائق الاكثر جدية في رأينا يتمثل بتطور مشاريع استكشاف الفضاء ومغامراته التي اصبحت منفذ آخر لا يقل اهمية عن العسكرية . حيث يقدر أن تكاليف رحلة ابولو ١١ قد وصلت الى مابين ٢٥ — ٣٠ بليون دولار . وبالاضافة الى الآثار المعنوية التي يؤدي اليها هذا المشروع (كاعادة التماسك الجماعي لدى الشعب واستعادة السمعة المفقودة للولايات المتحدة) فانه علاج لا بأس به — من وجهة نظر الرأسمالية — لحالات الانكماش الاقتصادي . ولكن علاجين لظاهرة الانكماش في آن واحد قد يؤديان الى عكس الغرض المطلوب فاستمرار الحرب الفيتنامية وتكاليفها المتصاعدة « زادت هذه التكاليف عن ١٠٠ بليون دولار حتى نهاية عام ١٩٦٩ » اضافة الى نفقات الفضاء قد حولت ازمة الاقتصاد الامريكي من الركود الى التضخم. ففي مابين ١٩٦٥ — ١٩٦٩ ارتفعت اسعار حوالي « ٢٢٠٠ » سلعة بنسبة ٥ — ٦٪ ، كما ان ازدياد نمو الشبكة الواسعة من المصالح المرتبطة في هذين المجالين غير الانتاجيين — كالشبكة الادارية والهندسية ، والعدد الهائل

من العمال ادى الى العجز المتزايد المعروف في ميزان المدفوعات الامريكي ، وحتم البحث عن بديل للحرب الفيتنامية . هكذا نفهم الإجراءات الأخيرة للسياسة الامريكية في علاقاتها مع الصين الشعبية ورفع الحظر عن تصدير عدد واسع من السلع الامريكية الى الصين ، اضافة الى سلسلة الانقلابات والردات اليمينية التي شملت اربعة اطراف العالم في الفترة الاخيرة ، بما سيؤمن منافذ شبه مأمونة لمزيد من الاستثمارات. انعجز الامبريالية عن مواصلة سياستها العدوانية لا يمكن أن يجعلنا نطمئن الى عدم امكانية تدخل هذا النظام في مناطق اخرى من العالم « وعلى الخصوص منطقتنا العربية » ، حينما تتهدد مصالحه . لان التخلي عن هذه السياسة لا يمكن أن يتم الا بتخلي هذا النظام عن الرأسمالية — وهو امر مستحيل — ولكن اجراءاته الاخيرة تمثل على الاقل حبة اسبيرين مسكنة لامراض لن يجتثها من الجذور الا القضاء على الامبريالية نفسها .

الاتجاه الى الريف في القصة المصرية الحديثة

أحمد محمد عطية

منذ ابدع هيكل اول رواية مصرية لحماً ودماً « زينب ١٩١٤ »، انبثقت الرواية المصرية من مشاق المخاض الاول لتدخل الى حلقات ميلاد جديدة . فمن رواية مترجمة بتصرف كبير ، الى روايات مقتبسة ، الى روايات مؤلفة باسماء تنكرية ، الى روايات مصرية صحيحة البناء والمضمون . ومن روايات تهرب من التعرض للواقع الاجتماعي بصدق فتلجأ الى استيراد اجواء اجنبية وتنقل حيوات مختلفة نقلا غير امين ، الى روايات تنشب حرابها في الواقع الاجتماعي والسياسي وتؤلبه تألباً عظيماً على الثورة .

رحلة طويلة خاضتها الرواية المصرية حتى اخذت تقف موقفاً مشرقاً من الروايات العالمية (١)، وحتى بلغت اوجها عند نجيب محفوظ الاب الحقيقي للرواية

(١) راجع تطور الرواية العربية الحديثة في مصر للدكتور عبد المحسن طه بدر .

المصرية . ولكن بعد نجيب محفوظ بدت الرواية المصرية وكأنما ادركها العقم. وفي مقابل سخاء نجيب محفوظ وقفت الرواية المصرية في حالة جمود .

والى وقت قريب – أوائل الستينات – عانت القصة المصرية من ازمة حـــادة . فمعظم كتاب القصة القصيرة من جيل الخمسينات انصرفوا الى المسرح المصري المزدهر حديثاً ، إما بسبب الرواج المادي، او بسبب اتساع نطاق الجمهور المتلقي، او لأنه اصلح ادوات الفنان في توصيل مايريد .وتوقفت صفحات القصة عن الظهور في الصحف واسفرت الاجيال الجديدة من الشبان عن اهتمامات مسرحية.

وبدا وكأن القصة القصيرة في موقف مهجور . فلا القديم يواصل عطاءه ولا الجديد يأمل اتباعها . اما الرواية فقد كانت حالتها اشد قتامة . ففيما عدا نجيب محفوظ وقلة من كتابها القدامى ، اقفرت الرواية المصرية من جديد ، الى الحد الذي جعل ناقداً متزناً مثل رجاء النقاش يصف نجيب محفوظ بأنه يقف عقبة في طريق تقدم الرواية المصرية . ومن الغريب حقاً أن نجيب محفوظ تحول عن كتابة الرواية طوال الأعوام الماضية وعكف على اصدار مجموعات من القصص القصيرة والمسرحيات ذات الفصل الواحد . ويبدو أنه سيكتفي بكتابة القصص القصيرة ، لأن القصة القصيرة أنسب للحظتنا الحاضرة .

ولكن في خلال السنوات القليلة الماضية بدا وكأن كل شيء يفور ويسفر عن ميلاد جديد للقصة المصرية . فان طوفاناً من القصص القصيرة بدأ يغزو الصحف والمجلات الأدبية ودور النشر . ومع ان دار النشر الحكومية خصصت سلسلة كتابات جديدة لنشر القصص ، كما أن المجلات الثقافية كالهلال والمجلة اصدرت أعداداً خاصة بالقصة القصيرة،بالاضافة الى عودة مجلة نادي القصة مع صفحات القصة الى الظهور بصحفنا ومجلاتنا العامة . الا انها لم تعد تتحمل وطأة هذا الفيضان من

القصص القصيرة ، فلجأ القاصون الجدد الى خلق منابرهم على نفقتهم الخاصة كمجلة « جاليري ٦٨ » وسلسلة « كتابات معاصرة » و كتاب الطليعة وغيرها .

وبذلك تكشفت الأزمة الحادة التي مرت بها القصة المصرية الحديثة عن انها أزمة المخاض وليست أزمة الاحتضار .

وهذه قراءة في القصة المصرية الجديدة . واذا كان من العبث محاولة وضع كتاب جيل الستينات في سلة واحـــدة ، لأن لكل منهم فكره ورؤيته الفنية وايديولوجيته أيضاً ، فاني سأعمد الى مطالعة أعمال كل كاتب على حدة . ومع هذا التفرد لكل كاتب الا أنني لاحظت وجود اتجاه كبير بين كتاب القصة الجدد نحو التعبير عن مشكلات الريف المصري. فستظل الحياة في داخل الأرض الزراعية بمثابة نبع لا يتوقف عن افراز أدب عظيم ، برغم تغير نوعية الحياة في العالم بعد تحوله الى الرأسمالية ونشوء طبقة جديدة من العمال . ذلك أن أدب العمال لم يزل راكداً وضعيفاً بالقياس الى أدب الفلاحين . وحتى في البلدان الاشتراكية يندرج أدب العمال ، كأدب موجه ، تحت باب الدعاية والاعلام اكثر منه تحت بابه الأدب . فاذا قيست رواية غوركي العمالية « الام » برواية شولوخوف الريفية « الدون الهادىء » بدت الأخيرة اكثر صدقاً واصالة ، بينما تقف الام شامخة كأدب دعاية ، بل لقد اتهمها بعض النقاد السوفييت بأنها رواية سطحية لم تتعمق حياة العمال ، ولم تقدم الا وصفاً خارجياً لها .

وفي نطاق أدبنا الحديث ، سنجد للفلاحين وللأرض وجوداً حقيقياً في كتابات الشرقاوي و يوسف ادريس و عبد الحليم عبد الله .. بينما يتقلص الادب العمالي ويكاد يقتصر على كاتب واحد هو محمد صدقي الذي كف ايضاً عن الكتابة للعمال منذ سنوات طوال .

وتناول الكتّاب لمسألة من المسائل ، تختلف من كاتب لآخر . فتناول أميل زولا لمشاكل الحياة في الارض يختلف عن كتابة عبد الرحمن الشرقاوي في «الارض» مثلاً . ومرد ذلك الاختلاف ليس لاختلاف البيئة فحسب ، بل لاختلاف الرؤية أيضاً .

ففي رواية «الارض» لزولا سنجد الارض ليست اكثر من شؤم للفلاحين ، تجعل العائلة الواحدة تتقاتل في بشاعة حتى الموت .. وتدفع الجندي المحارب «جين» الى الفرار من هذه المعركة الرهيبة مفضلاً الحرب على السلم . فالارض لدى أميل زولا هي كل حياة الفلاحين الفرنسيين ، وهي مألهم الاخير ، وهي شيء مثير للحقد والكراهية ، ومشجع على جرائم الارث وقاتلة لكل مشاعر الانسان النبيلة .

بينما نجد القرية المصرية في «الارض» لعبد الرحمن الشرقاوي ، قرية من صغار البورجوازيين وليست قرية معدمين ، وأهلها لا يعانون فقراً حقيقياً ولا جوعاً ، بل تعشش في رؤوسهم مسائل مجردة كالدستور والباشا وحزب الشعب وحكم صدقي ..

وعند يوسف أدريس تعد «الحرام» انموذجاً رائعاً للقصة المصرية عندما تعالج بصدق مشاكل الارض . فقد نجح يوسف ادريس في خلق البطل التراجيدي الحق في «عزيزة» بطلة القصة التي وان كانت نمطاً لمئات الآلاف من عمال وعاملات «التراحيل» ، الاجراء الذين يزرعون ويحرثون الثروة الزراعية في أراضي الآخرين ، ويتنقلون بين ريف مصر ، يحملون الفقر والجوع ويدفعونه بلقيمات لا تتيسر في كل وقت ، نقول إن كانت عزيزة نمطاً معروفاً ، فان فن يوسف ادريس نجح في اعطائها الملامح الذاتية المميزة . واذا كان حادث الحمل الحرام هو

محور القصة ، فقد أوضح بجلاء في ومن خلال تسلسل فصول القصة ، أن الحرام منبعه الفقر والبؤس والفاقة .

كتب حسن محسب في شهادته للطليعة (عدد سبتمبر ١٩٦٩) عبارتين هامتين تدلنا على فكره : « لانني فلاح .. لايمكن أن انسلخ من جلدي » و « بشكل أكثر خصوصية يعاني هذه المشكلة الأدباء الشبان .. لأنهم أمام قضية ذات حدين : ان يسهموا بفكرهم في التعجيل بالتحول الاشتراكي .. وفي نفس الوقت يكتبون لأغلبية يسيطر عليها التفكير القدري والاعتقاد في كرامات « الأولياء » في عصر العلوم والفضاء .. » .

فلنر كيف عبر حسن محسب عن الفلاح وما مدى مواءمته بين الواقع المتخلف والفن المتقدم . ولعل ارتباط حسن محسب بقضية الفلاح المصري يبدو جلياً في كتابه الرابع « قضية الفلاح في القصة المصرية » الذي ظل يرقد في متاهات دار الكاتب العربي منذ سنوات حتى صدر هذا العام .

أصدر حسن محسب ثلاث مجموعات قصصية : « لحظة حب » ١٩٥٨ ، « الكوخ » ١٩٦٤ ، و « التفتيش » ١٩٦٧ . ومجموعته الرابعة التي فاز عنها بالجائزة الثانية للمؤتمر الأول للأدباء الشبان مازالت تنتظر النشر مع روايتين آخريين ، وذلك بالاضافة الى دراسته النقدية « قضية الفلاح في القصة المصرية » الصادرة عن دار الكاتب العربي بالقاهرة .

أما قصص المجموعة الأولى « لحظة حب » فيمكننا ان نسقطها من حسابنا بالتأكيد لركاكة الأسلوب والبناء الفني وتهاوي المضمون . فلتكن هذه هي الاضطرابات المعتادة للأعمال الأولى للأدباء . اما قضية الفلاح فهي مفتقدة

في قصصه الأولى برغم ان بعضها يدور في الريف . ولن تجد في هذه القصص فكراً مميزاً ولا أسلوباً فنياً محدداً ، بل ويصعب أن تضمها تحت أطار القصة .

وإذا كانت القصص التالية لحسن محسب قد تقدمت في « الكوخ » بحيث يمكن اعتبارها قصصاً تقليدية البناء ، الا انها تحاول التعبير عن واقع عربي بعيد تعبيراً خطابياً ، مثل قصة « الكوخ » التي تحكي قصة استشهاد فدائي جزائري . ولو لم يذكر الكاتب بعض الأسماء الجزائرية المعروفة ويدلنا مباشرة على أن الصراع ضد الفرنسيين على أرض الجزائر لأمكننا ان نضع القصة على أية أرض . فلا تكاد القصة تعبر عن ملامح مميزة أو ذاتية . ولا شك أن هذا ناجم من عدم معرفة القاص لواقع القصة الذي يكتب عنه بصدق ، ولا بد أن يأتي التعبير ذاتياً يوضح رؤية الكاتب وفنه الخاص .

وقد تبدو لنا بعض ملامح الريف المصري من خلال السرد في قصته « في الفجر » التي تصور مأساة ابن مات أبوه تاركاً له أسرة معدمة .

غير أن قضية الفلاح التي تحدث عنها حسن محسب كثيراً وجدت أخيراً في قصته الطويلة «التفتيش» ، وهي عبارة عن عدة لوحات لموضوع واحد . ومع ان التفتيش لاتحتل الا ثلث صفحات مجموعته الثالثة تقريباً ، إلا انها تمثل تحولاً فنياً وفكرياً في قصصه . وفي التفتيش سنلمس صوراً واقعية عامة لعذاب الفلاح المصري الكادح في ظل حكم (التفاتيش) الاقطاعية لصالح الأمير أوالبورجوازي الكبير . وهنا يقدم لنا حسن محسب صوراً واقعية صارخة لبؤس الفلاح . هنا فلاح حقيقي معذب بائس يائس هارب من ذل العمل لصالح غيره — «لوحة ابوزيده» — وهي صورة تمت الى الواقع المعاصر بصلة قريبة او بعيدة . حقاً ان الأمراء قد

ذهبوا بضربة تحديد الملكية الزراعية ومصادرة أموال الأسرة المالكة . ولكن مصرع صلاح حسين في كمشيش نبهنا الى أن استبداد كبار ملاك الأراضي مازال في عنفوانه . ومن هنا فإن الصور التي يقدمها حسن محسب لحياة الفلاح في ظل سيطرة الملاك إنما هي من قبيل الاحتجاج والرفض والاصرار على حق الفلاح في أرضه .

ولكن ليس كل مافي التفتيش بؤس وذل وفقر وكد للغير ، بل تنمو مع كل هذا قصص الحب الجميلة لتظلل عذابات الفقر والحاجة كقصة « بنت المليجي » . الا ان الحب سرعان ما يختنق ويتلوث تحت ضغط الفقر والارهاب والطغيان الطبقي في التفتيش . وفي مواجهة هذا الطغيان والفقر لايجد الفلاح أمامه سوى طريقين : الهرب أو السجن .

وتبقى ملاحظة على مضمون التفتيش الذي يناقش واقعاً قديماً أزاحته القوانين الثورية التي خلقت بدورها واقعاً جديداً وقضايا جديدة تحتاج الى من يعايشها ويكتب عنها كما فعل الشرقاوي في روايته « الفلاح » ، وفتحي سلامه في روايته « الجرار رقم ٣٥ » . وأعتقد أن حسن محسب جدير بأن يعبر عن قضايا الفلاح الجديد بعد زوال التفاتيش والاقطاعيات .

وفي رواية « دم ابن يعقوب » يقودنا شوقي عبد الحكيم الى الحياة الحقيقية لفنان الريف المصري . من اللغة العامية المعبرة الى طبيعة الحياة الحقيقية التي تأنف من ذكرها الكتب الرومانسية الفخمة العبارة المصابة بداء الرضى عن كل شيء والتي تكتب الأدب للزينة والترف وليس للحقيقة وللفن الصادق من أجل الحياة . فليس كل مافي القرية خيّر وشريف كما في قرية الشرقاوي

وشخصياته المسطحة ، بل شخصيات حية حافلة بالتناقض بالخير والشر الى أبعد الحدود .

وفي هذه الرواية يتدفق تيار الوعي بلا انقطاع ،فيرسم لوحة رائعة للحياة المدنية في الريف ، بنقلات فنية محكمة من الماضي الى الحاضر ، ومن شخصية الى أخرى ، وبلغة بسيطة ذات ايقاع شاعري وجمل قصيرة حادة .. وبكلمات تعرف ماتريد وتقوله بحسم وبأقل عدد من الكلمات . والموقف الواحد في الرواية غني بشتى المشاهد والانفعالات والحياة لا تسير في خط مستقيم ، انما الإنسان كتلة من الماضي والحاضر ورؤى المستقبل . فهاهو صراف القرية « زارته أشياء » ، وهي كثيراً ما تحدث .. تلك الأشياء المجهولة المتداخلة التي تتفجر داخلنا ، وتأتينا ، هكذا لمجرد رؤية شيء او انسان». والرواية حافلة بالشخصيات المتنوعة والجديدة حقاً ، من فنان القرية ومتعهد الحفلات الى الطالب الهارب من قتل أخته ليسكن في بيت الغوازي ، الى الصحفي المحلي وتناقضاته بين الحنين الى الريف وقرفه البورجوازي من العادات الريفية والقذارة الريفية ، والى العقلية القبلية المتمثلة في مجموعات الأعراب الذين يصرون على أحياء العرس بفرقتين متنافستين من الغوازي. صور صادقة وحياة ريفية حقيقية تقدم الينا بواقعية نقدية وليس برومانسية كليلة لا ترى في الريف الا أشجاراً سامقة وخضرة يانعة وجداول مياه جارية كما فعل هيكل في روايته الأولى « زينب » ، وليس بشعارات زاعقة مثل شرف الكلمة، وبالشخصيات المسطحة واللغة التقريرية والحوار الخطابي كما فعل الشرقاوي في « الأرض » . ولكن هنا ايضاً الى جانب البساطة والخير توجد حياة حافلة بالخسة والقذارة والعادات المتخلفة . كما أن الرواية تتخلى عن سطحية الرواية التقليدية

وحرصا على تسلسل الحكاية المنتظمة ؛ فالحياة لاتسير وفق هذا الانتظام الدقيق، والشخصيات الحقيقية شخصيات ملونة بأكثر من لون وليست شخصيات نمطية ساذجة البناء تنطق عبارات مرسومة وخطابية ومحشوة بفكر مجرد .

واذا جاءت رواية شوقي عبد الحكيم « دم ابن يعقوب » متقنة الصنعة الروائية فلأنــه كاتب درب نفسه وكتب بالإضافة الى مقالاته الأدبية ، بحوثا ميدانية عن أدب الفلاحين المصريين ومجموعة قصص ومسرحيات قصيرة ورواية أخرى سابقة على هذه الرواية هي رواية « احزان نوح » . كما انه كاتب محترف، وهذه الرواية هي ثمرة العام الثاني من تفرغ الكاتب بمنحه تفرغاً من وزارة الثقافة المصرية . وربمــا كانت رواية شوقي عبد الحكيم هي اول عمل نتج من التفرغ ووجد النشر عن طريق وزارة الثقافة ، ذلك أن سائر أعمال التفرغ مكدسة في أدراج المكاتب كمخطوطات أو في مراسم الفنانين ومخازن ادارة التفرغ . كما يمتاز شوقي عبد الحكيم على رفاقه برسوخ قدمه في مجال الكتابة .

وشوقي عبد الحكيم يقودنا بخبراته الى عالم جديد ، حيث يعيش فنان القرية . ونحن نتعرف في عالم الفن الشعبي الريفي المصري ليس على الملامح العامة الخارجية فقط ، بل على الحياة الباطنية العميقة للشخصيات الحافلة بالانفعالات والمشاعر . ونتعرف الى تفاصيل كل شيء لدى فنان القرية : طرق معيشته ودكانه وآلاته وعلاقاته وادواته الفنية ومواويله. وفي ريف شوقي عبد الحكيم أيضاً نساء لايجدن لقمتهن وينتقلن من أحضان رجل الى آخر .

وفنان القرية معذب يبدأ من الصفر ،طموح الى بيت وزوجة ولقمة عيش دائمة . والمدينة الصغيرة في الريف تعج بظاهر الحياة الريفية . فأهم شوارع المدينة

يخترقه « طابور طويل غريب من الجاموس والماعز والجمال ، وفي اغلب الأحيان حمير سبخ » .

والبناء الروائي الذي يقوم على تيار الوعي والتداعي (والفلاش باك) ينقلنا نقلات سريعة . ففي كل فصل جديد يطور الكاتب شخصياته ويتركنا مشدودين الى شخصية أخرى ، وهي حيلة فنية قديمـــة وجميلة ، أجاد الكاتب استخدامها فحافظ على تشوقنا لمعرفة المزيد عن شخصيات روايته . وحين يكتب شوقي عبد الحكيم تحت عنوان روايته « رواية مصرية » فانما يعني بحق أنها رواية مصرية تماماً لحماً ودماً . فالسرد والحوار في الرواية منحوتان من العامية المصرية المختارة بذكاء ومهارة ، وفي بيت الغوازي والمومسات تدور أغلب احداث القصة او تنطلق منه الشخصيات الى عالم موسوم بدقة ، لتعود فتلتقي .

غير ان شغف الفنان بفنون القرية أخرجه عن إطار الرواية كلما استغرق في صفحات كثيرة في ايراد نماذج الفنون الشعبية الريفية وهي نماذج مطولة « اكثر من ٢٠ صفحة متصلة » للأزجال والحوار الفكاهي الانتقادي . وهي جديدة حقاً لأنه عـــالم يستكشف لأول مرة ،ولكن النماذج مطولة كما يليق بالبحث وليس بالرواية . حقاً ان المؤلف يقدم لنا نماذج حية عن السامر والفرفور والسيد ، الذي أجهد يوسف ادريس طاقاته ليؤكد لنا أنه مسرح مصري صميم وأصيل وسابق على المسرح الأوروبي . أما النماذج ذاتها فتدلنا على تعاطف فنان القرية مع الفلاح الكادح في القرية او نماذج اخرى تغص بالابتذال .

الريف المصري في رواية شوقي عبد الحكيم « دم ابن يعقوب » عالم قائم بذاته ، بمفاهيمه ، وفنونه ، وحلقات السامر التمثيلية ، ريف حافل بالجريمة والضياع وصراع الأجيال .

وتطمح رواية فتحي سلامة « الجرار رقم ٣٥ »(١) الى تصوير محاولات زرع الصحراء واقامة ريف مصري جديد عليها ، وما في هذه المحاولات من حياة انسانية مع تقديم صور فوتوغرافية للصحراء واهلها . وفي نقلات هندسية طويلة ينقلنا فتحي سلامة من ذكريات الماضي البعيد عن الجن والعفاريت وجو القرية في سن الطفولة الى الحاضر الغامض بآلاته وعالمه الباعث على الكآبة . فماضي الاحداث منذ سن السابعة يجذب المؤلف جذباً ولو انه وقع ولم يعد يمثل الا ذكرى ولم يعد يهم الرواية في شيء من هذه الصفحات الطويلة ، مع تقريرية ومباشرة وتعليق فكري مجرد يزج به المؤلف لأنه لايطيق عدم التدخل في الرواية ؛ فأفكاره تغلب على البناء الروائي . ولا شك أن الكاتب اراد ان يقدم لنا شخصياته على نسق هندسي تقليدي بتقديم فصل عن ماضي الشخصية منذ طفولتها ، وواقع الريف وافكار الجن والعفاريت . فنعرف عن طفولة الراوي انه وحيد امه ، مدلل الى ابعد الحدود ، وانه عندما كبر ترك القرية الى الصحراء ليعمل في الآلات الزراعية الحديثة . ويدلي الينا المؤلف ببيان تقريري على لسان الراوي عن عمله وطبيعة المعسكر والحياة والوظيفة بلغة الملفات والاضابير الجافة كأنما هي مهمة ثقيلة يريد أن يفرغ منها بسرعة . فنفهم ان الراوي اخصائي اجتماعي ومشرف اعاشة في معسكر لاستكشاف الصحراء . وبذلك فهو خبير النفس البشرية – على حد تعبيره – وسط العمال .

وبأسلوب التحقيق الصحفي يروي لنا فتحي سلامة في ملاحظات سطحية طريقة الحياة في المعسكر وطبيعة وظيفته ، والأحاديث التي دارت وانتهت دون أن يرد نص هذه الاحاديث . بل انه في مقدمة الرواية يذكر لنا صراحة أنه يأمل

(١) الفائزة بالجائزة الاولى للرواية في المؤتمر الاول للادباء الشبان .

في تحقيق الأحلام المزدهرة عن طريق الجرار ومياه النيل ، كما فعل الفراعنة من قبل ،حين بنوا المجد والاهرام بالفأس والمقطف ونهر النيل . ان فتحي سلامة اسم جديد في عالم الرواية ، وعمله قد لايرقى الى فنية رواية شوقي عبد الحكيم الكاتب المدرب المتمكن من أدواته والمتابع لأحدث اساليب التكنيك الفني .

واذا كان شوقي عبدالحكيم قد تمكن من الغوص في أعماق شخصياته ليقدم لنا شخصيات عميقة مميزة،فإن فتحي سلامة مغرم بالوصف الخارجي السطحي المباشر والساذج الذي يريد أن يروي لنا كل شيء في صورة تقرير صحفي . فالوصف ثرثار يدور من خلال عين فوتوغرافية تسجل فحسب كل ما تراه. ويمضي الكاتب فيروي لنا النوادر عن احداث سابقة لمن حاولوا غزو الصحراء.فهو مغرم بالثرثرة كما قلت، والحكاية بدون هدف محدد سوى الثرثرة . وربما أراد فتحي سلامة بحكايته ونوادره التي لاتتعلق بشخصيات الرواية او بنائها ان يرسم صورة عامة للحياة في الصحراء ماضياً وحاضراً . ولكن لم تجن بذلك على تقبل روايته كعمل فني !

وحين تكتشف المياه في الصحراء يكتشف الراوي أنه غارق في اكاذيب وينسى انه أغرقنامعه فيها.وتغرق الرواية في كثير من الاحلام الساذجة.وشتان بين استخدام لغة الحلم عند كافكا ، او عند نجيب محفوظ والشاروني ،وبين الاغراق في الاحلام الساذجة التي لامعنى لها في الرواية ولا تخدم اية فكرة سوى الثرثرة. انه يريد أن يغمر الصفحات بكل ما رأى في حياته دون ان يخضع كل ذلك لضرورات الفن في الاختصار والانتقاء . كما ان استرجاع الذكريات المطولة لاصلة بينه وبين تيار الوعي عند جيمس جويس كما اجاد استخدامه شوقي عبدالحكيم ونجيب محفوظ وغسان كنفاني والطيب صالح .. فهنا رواية تضرب في كل زمان ومكان ضربات عشوائية لاجدوى منها . وبدلاً من أن يقدم لنا فتحي سلامة قصة

تخدم الشعار المتقدم على الرواية من اجل بناء سماء سابعة من الجرار والنيل . قدم لنا اشباح علاقات غرامية ساذجة مع بدوية ، ومن خلالها استرجع ذكريات غرام فاشل آخر في القرية .

ان فكرة فتحي سلامة في روايته ، ومؤداها ان البيروقراطية وعدم اهتمام الصحافة بالأعمال الدائرة في الصحراء مثيرة لليأس والقنوط ، هي فكرة معقولة ولكنها غير واضحة من خلال الاكوام الهائلة من الاحلام الساذجة والحرص على الطابع الجنسي المراهق في الرواية .

في رواية « ايام الانسان السبعة » لعبد الحكيم قاسم ، وهو من اكثر الكتاب وعياً بالجذور الحقيقية لمشاكل الريف ، نطالع ريفنا التقليدي الذي تتغلغل فيه الخرافات والاساطير الدينية حتى النخاع . فهذه الخرافات والاساطير عن الأولياء والحياة الاخرى واحلام الرحيل الى مقابر المشايخ والاولياء ، هذه كلها الحلم الوردي الذي لا يكف الفلاحون عن التحليق في آفاقه بعد كل يوم مكدود بالعمل الشاق العنيد تحت وطأة شمس حارقة وظروف عمل يدوية متخلفة وقاسية . « في كل مساء يلتئم شمل هؤلاء الصحاب بعد أن عملوا طول النهار في الارض حتى تشققت ايديهم وصاحوا في الاولاد والنساء وساطوا البهائم وعميت عيونهم بالغضب العارم.. في المساء لبسوا الجلاليب المغسولة وصلوا العشاء جماعة في الجامع وقالوا من قلوبهم آمين خلف الامام ، ثم جاءوا الى الدور . هم الآن طيبون حكماء ينظرون الى كد اليوم بوداعة ، ويبتسمون نادمين على عصفهم الغاضب بالنساء والولدان والبهائم ، لكنها قسوة الحياة وخشونة النهار ، وذلك السر الكبير المبهم الكامن في صدر الارض المعم بالخصوبة وهم يدبون فوقها حيارى مهمومين غاضبين في وقدة النهار. اما قائد هذه الاحلام وبطلها فهو « الأب ــ الكبير » الحاج كريم

المزارع الحكيم الذي يعرف الارض جيداً ظاهراً وباطناً « سافر كثيراً وسمع كثيراً. وحينما يشرع في الكلام، فإن عينيه تصبحان في الفضاء المضاء بالضوء الاصفر الباهت ، وتطل النقوش من الحيطان بعيونها البراقة .. » وتورد الرواية اوصافاً كثيرة لشخصية الحاج كريم او الأب الروحي والرمز الواضح للآلة ، والذي يقف دواره على رأس الحارة ، وهو رمز سابق مكرر استخدمه نجيب محفوظ في أولاد حارتنا وإن يكن بشكل بعيد عن الريف . وموقع دوار الاب الكبير على رأس الحارة يدلنا على مكانته لدى اهلها، فهم يحبونه ويجلونه ويطيعونه ..

وفي دوار الحاج كريم يلتقي الرجال في احاديث المساء واحلامه ليحكي كل رجل همومه وذكرياته وتطلعاته .

ومن خلال هذه الدار الكبيرة الحافلة بالذكريات والوقائع والاحلام نتعرف الى الريف في رواية عبد الحكيم قاسم الاولى « ايام الانسان السبعة » . وهكذا نتعرف من خلال هذه الحكايات على وقائع الحياة في القرية التي يقف الحاج كريم على رأسها شامخاً يتحدى كل شيء حتى الوباء والموت ، فتختلط قصص الوباء والموت بذكريات الحب الاول ، والعشق الممنوع بالشائعات والاتهامات . ومن خطيب المسجد الذي يرغب الناس بأحاديث النار والعذاب واللصوص والزناة الى احاديث الجن والعلاج الريفي الساذج للامراض .. اما اعظم ماتهتم به هذه الرواية فهو سطوة الفكر الديني التقليدي المتخلف والرجعي على فكر وحياة الناس في الريف المصري . ولذا تعكف الرواية على تقديم الصور الواقعية لهذه السيطرة الخرافية الرهيبة كالاخطبوط على ريفنا المصري .

وتحرص الرواية على ان تفهمنا عن طريق غير مباشر ان هذه الرجعية الدينية ضد الدين الكريم . ذلك واضح من مهاجمة الاب الكبير لادوات الدجل

الخاصة بالشيخ الذي سبقته شهرته بالعلاج عن طريق الجن؛ فقد وقلب للشيخ بخوره وكسر آنيته وضربه وطرده من البلد .. »

ولكن لا يكاد الاب الكبير يخلصهم من الخرافات اليومية حتى يقودهم في الامسيات الى كتب التراث الصفراء ، والى الاعداد الهائل لزيارات مقامات الاولياء ومساجدهم واضرحتهم . وهو يكاد يملك عليهم جل تفكيرهم ويعوضهم عن شقاء الايام في الزراعة والارض وتحت الشمس الحارقة وفي ظل طعام لا يكاد يكفي .

غير أن عبد العزيز الابن العصري للأب الحاج كريم يلجأ الى كتب السير الشعبية الاخرى الراقـــدة في صمت الى جوار كتب التراث الصفراء التي يجتمع حولها الدراويش مرتلين منشدين ، كما تلتف القرية حول قبور الاموات في كل عيد ومناسبة حاملين « الجريدة » في صمت وخضوع . أضف الى ذلك غلبة الفكر الاتكالي الزاهد الذي ينظر الى الدنيا نظرة الراحـــل الزاهد من رحلتها القصيرة متطلعاً الى الحياة الاخرى الكبرى . وعندما تلد امرأة ولدها المنتظر يسمى بالشحاذ :

« .. وجابت امرأة النجار ولداً اسموه شحاتاً ، فكلنا شحاتين وان هي الا لقيمات ومتاع الدنيا قليل » .

وعلى أي حال فان الصور الواقعية التي تقدمها الرواية لانكباب الاسرة الريفية على كتاب الاحجبة والتعاويذ اجتلاباً للأمن والسعادة والاحلام المؤكدة انما هي صور بالغة الدلالة على الانفصال الشبكي الحاد الذي تعاني من جرائه الحياة في الريف المصري عن الحياة في المدينة المصرية الحديثة المزدانة بمظاهر الحضارة الحديثة والفكر الحديث ايضاً .

هذه هي صورة الريف في القسم الأول من الرواية « الحضرة » ؛ وهي تلك الامسيات الحافلة بالشعوذة والخرافة التي تدور في دار الحاج كريم وتحت رعايته هرباً من نهار الايام الشاقة الغاصة بالكد والعرق .. تلك الليالي التي تمنى لها الجميع الدوام بلا نهار شقي ..

في « الخبز » — الجزء الثاني من رواية عبد الحكيم قاسم « أيام الانسان السبعة » — نزداد تعرفاً على اسلوب الكاتب الذي يستخدم الصورة الشعرية الجميلة للتعبير عن الواقع الريفي بصدق وفنية غير مباشرة .. انظر مثلاً الى هذه الفقرة التي يستهل بها الكاتب ثاني اقسام الرواية للتعبير بالحلم في سطور قليلة عن حياة ريفية كاملة : « الغرفة مخنوقة بأنفاس النائمين ، الضوء مخنوق على الحيطان بتهاويل الظلام ، والمصباح عين ناعسة على الحائط ، عمدان السرير النحاس الأربعة الشاهقة تجثم على حيطان الغرفة وسقفها ، الانفاس تتردد في غير ما نظام ، حيوان ضخم راقد تحت اكداس النعاس ، حبات العرق على الجباه ، الاجساد المتعرية من الزحام والحرارة ، العالم الغامض المهول بالظلال والعتامة ورائحة اناء البول الحمضية .. كلها تسرب الى دماغ عبد العزيز في نومه فتهوش احلامه ، غولة ضخمة ذات شعر تمتد لتخنقه » . وهكذا يصور عبد الحكيم قاسم من خلال صوره الواقعيـــة المتابعة لوحات أو تنويعات على لحن الريف المصري . ويجيد عبد الحكيم قاسم استخدام أسلوب الحلم في المزج بين الرؤى والواقع مزجاً موحيـــاً دالاً على قسوة الحياة الريفية وبشاعة أفكار الجن والغيبية عليها .

في اللوحة الاولى قدم لنا عبد الحكيم قاسم صورة من سيطرة الفكر الديني الخرافي والشعوذة على الحياة في الريف المصري من خلال « حضرة » الحاج كريم واصدقائه ومشايخه ورحلاته الى الاقاليم ، حيث قبور ومساجد الاولياء

والمشايخ . وفي « الحيز» بيّن لنا عبد الحكيم قاسم من خلال تتابع صوره الجميلة كيف انعكست آثار الفكر الديني والجري وراء الاولياء والمشايخ والاحجبة ، كيف انعكس كل هذا على الحياة داخل منزل الحاج كريم ، وكيف اضيرت الاسرة اقتصادياً ومعنوياً من جراء النهب المستمر لثرواتها الزراعية والحيوانية التي تعتمد عليها في معاشها ، وذلك كله لصالح المشايخ والاولياء والزيارات التي لا تنتهي للموالد والتجمعات الدينية القديمة .

وهكذا يعبر عبد الحكيم قاسم بوضوح عن تعارض عالمَين ،عالم الحاج كريم الحافل بالموالد وزيارات الاولياء ، وعالم الام المكتظ بالقدور والجرار ومخازن الحبوب ، وكلا العالمين ينال من سطوة الآخر .

واذا تعرفنا في « الحضرة » على تفاصيل السهرات الدينيـــة والاذكار والاحجبة والادعية . فاننا في « الحيز » نخوض في داخل البيت الريفي المصري ، حيث السلال والزنابيل والمحاصيل والقدور والافران ولبنات الجاز .. في القسم الاول كان ذلك جانب الرجال ، اما في القسم الثاني فهنا عالم النساء الريفيات المقدس الذي لا يدخله رجل . غير ان هذا العالم الداخلي في البيت الريفي تحكمه كل أفكار الموالد والخرافات التي تسيطر على كل شيء في ريفنا المصري . فمن خلال سيطرة الفكر الديني على الريف المصري ينتشر خبر الحيز في القرية فيصبح ظاهرة غريبة تشارك في صنعها نساء القرية ورجالهـــا للمساهمة في صنع الحيز الذاهب الى المولد تبركاً واجتلاباً للحظ ونكاية في الشياطين والحساد .. ويرينا عبد الحكيم كيف تتسبب الخلافات بين عالمي الاب والام في حرمان الابن عبد العزيز من الحنان والرعاية المطلوبين لمن في مثل سنه .

ولكن هذا لا يوقف سير العجين والحيز ولا زيارات الموالد وسهرات

الحضرة. فتلك هي الملامح الاساسية للحياة في ريفنا ، والتي تشكل تعويضاً حقيقياً عن الشقاء والجد في ظل ظروف العمل الزراعي اليدوي المتخلفة . وكما تسيطر الكتب الصفراء على عالم الرجال كذلك تفعل في عالم النساء، حيث تستخرج منها الادوية والاحجبة وضمانات المستقبل ..

وهكذا تنساب الحياة الريفية من خلال فصول الرواية من الحضرة الى الاعداد للخبيز الى السفر الى مولد السيد البدوي بأصناف وأصناف مما اخرجته الافران والمزارع والحيوانات الريفية .

وفي « السفر » نتعرف من خلال التفاصيل الصغيرة على صور الاستعداد للسفر الى المولد في طنطا . ان لدى عبد الحكيم قاسم ولعاً كبيراً بذكر كل التفاصيل الصغيرة للحياة الريفية المصرية . فترى من خلالها الى أي مدى يمثل السفر الى المولد قمة الخلاص بالنسبة للحاج كريم ، الخلاص من المناظر اليومية المكررة والحياة التي لاتتغير الى السهر والاضواء والافراح في مولد السيد البدوي حيث تجد الوجوه المصابة بالانيميا بهجتها الوحيدة .

وتتابع فصول الرواية في شكل لوحات متنوعة لتصور لنا بدقة متناهية الحياة في الريف المصري من الحضرة ، الى الخبيز ، الى السفر ، الى الخدمة ، فالليلة الكبيرة ، ثم الوداع والطريق . تلك هي عناوين اللوحات السبع التي تتكون منها رواية « أيام الانسان السبعة » . ويمكنني أن اضيف موضحاً بأنها ايام الانسان الديني السبعة .

انظر الى سخرية الكاتب من رواسب التخلف التي مازالت تحكم ريفنا برغم كل تقدم حضاري . « تذكرها كيف تأخذ الثياب والاوعية الى هذه الترعة

لتغسلهم ، فالبحر لاينجس أبداً ولو ألقيت فيه الجيف ، اما ماء الانابيب فمن يعرف مأتاه ؟ » .

وفي فصل « الخدمة » ننتقل الى المدينة الريفية الكبيرة حيث تختلط مظاهر التقدم بمظاهر التخلف ، وحيث يبهر القادمون من الحقول بالحياة المدنية اللامعة النظيفة بعض الشيء . وفي المدينة تجري استعدادات أخرى للمولد . استعدادات بالجنس والمخدر واستعدادات بعض العساكر الريفيين وقسوتهم وبالزحام المهلك المقزز وبسخرية اهل البندر من أهل القرية . ولكن كل ذلك مقدر ومحسوب في سبيل الخدمة ، خدمة السلطان صاحب المولد السيد احمد البدوي . ولكن في مدينة عبد الحكيم قاسم أيضاً نجد الاطفال يتبولون ويتبرزون على الأرصفة ويلعبون في قذاراتهم . وفي المدينة يشعر عبد العزيز بطل الرواية بالقهر والذل والسخرية المرة من الفلاحين .

وفي « الليلة الكبيرة » للمولد يتركز النشاط كله في الاعداد للطعام والسهرة العامرة بالفتة واللحم . وهنا يرسم عبد الحكيم قاسم صورة رائعة حزينة للانكباب على التهام الطعام ، قاصداً الاحتجاج على ضياع الفكر الحر في هذه المراسيم الدينية الموروثة . « الديناصورات حكمت العالم مليون عام ، اجساد هائلة بامخاخ صغيرة وأفواه قارضة يتزاحمون هكذا دون تدبير . عبد العزيز يكاد يبكي حزيناً . انه ابن هؤلاء المنقضين على الطعام في بهيمية غريبة . يود ان يقف ويصرخ فيهم ان يكفوا وان يتعقلوا العالم ، ويقسموه الى مربعات صغيرة ويتأملوه . ذلك التزاحم الرهيب ينفي الفكر ، ينبذه ويدوسه » .

وفي تلك الليلة الكبيرة يختلط المهرجون بالراقصات والمغنيات ، والمشايخ بالمشعوذين بدخان المخدر الازرق ، والكلاب والمومسات ومخبري البوليس بخيزراناتهم

التي تلهب الاجسام ، واخيراً زيارة مقام السلطان السيد احمد البدوي .

ويرفض كاتبنا هذا العالم الغريب المتخلف . ويأتي هذا الرفض على لسان عبد العزيز بطل الرواية المثقف الذي شبههم بالبهائم واعتبرهم عباد الاصنام . « امم من غير عقل .. من غير تفكير .. امم بتدوس زي البهائم مش عارفين رايحين فين .. مش عارفين جايين منين » .. « بتعملوا ايه رايحين فين .. جايين منين ياعباد الأصنام». وقد حول هذا الرفض عبد العزيز الى الشرود وتقرير مايحدث في المولد بأنه مجرد سوق ! وفي « الوداع » ودعتهم المدينة بالشتائم « وسختوا البلد يابهايم » .

وفي « الطريق » يشعر عبد العزيز ايضاً بعزلة المثقف عن الريف . يشعر بذلك شعوراً حاداً لاستمرار الريف في حياته التقليدية ومعتقداته البالية . غير ان بعض الامل يراودنا مع انتشار الراديو في الريف الذي يريد ان يستيقظ ليفهم . « عاوزين نفهم يابجم .. هنتي طول عمرنا حمير .. » .

وهكذا تضيع « ايام الانسان الريفي السبعة » في طيات الخرافة والشعوذة والتخلف الحضاري والفكري ، كما صورها بدقة تامة عبد الحكيم قاسم في روايته الاولى « ايام الانسان السبعة » .

ومن القصص الفائزة بجوائز نادي القصة ـ التي وجدت طريقها الى النشر ـ روايتا « هدير » لمكرم فهيم و « سلمى الاسوانية » لعبد الوهاب الاسواني . وتنضم الروايتان الى تيار الاتجاه الى الريف في القصة المصرية الحديثة .

وفي روايته « هدير » ـ التي استعار كاتبها اسلوب عبد الرحمن الشرقاوي في روايته وعلى الأخص «في الأرض ـ والشوارع الخلفية ـ والفلاح» ـ يتناول مؤلفها مكرم فهيم بالتفاصيل دقائق الحياة في قرية ريفية صناعية جمعت بين الحياة الريفية

والحياة العمالية بالاضافة الى وجود البيك الاقطاعي . ففي قرية « الشيخ فضل » التي تقوم دعائم حياتها على زراعة قصب السكر وتوريده لمصنع السكر المقام في القرية، والذي أوجد اختلافاً جذرياً في حياة القرية بالمقارنة مع مثيلاتها من القرى المصرية الاخرى . فبالاضافة الى الفلاحين وملاك الاراضي ، تواجد العمال الذين لايملكون سوى قوة عملهم وسواعدهم . كما ان بعض مظاهر الحياة المدنية اخذت تفد الى القرية تباعاً كالكهرباء والمدارس والنقود أيضاً . غير ان كل هذا لم يلبث ان تعرض للانهيار ازاء اعتزام الحكومة اغلاق مصنع السكر شريان الحياة بالنسبة للقرية . اذ انذر المصنع الفلاحين بالكف عن زراعة القصب ، لأنه لن يلتزم بعد ذلك بتسلم محاصيلهم . ومن هنا بدأ الشلل يصيب الحياة في القرية ، العمال والفلاحين ، الكبار والصغار ، الحياة الاقتصادية في القرية .. وبالجملة كل شيء هدده الانهيار الشامل من جراء هذا الحادث الهائل الذي يهدد مجرى الحياة الريفية في قرية «الشيخ فضل» .

ويتجاوز التشابه بين روايتي « هدير » و« الارض » حدود الاسلوب الفني واللغوي الى طبيعة الاحداث والسرد . فكما حدث في « الارض » عندما ثار حادث اعتزام الحكومة مد طريق زراعي على أراضي الفلاحين المنتزعة منهم وأخذوا يبحثون عن الحلول التي استقرت على الاستعانة بالبك الاقطاعي الكبير في القرية لتقديم الشكوى الى السلطة ، كذلك فعلت رواية « هدير » عندما لجأ الفلاحون أيضاً الى الاقطاعي « عثمان بك » لتقديم شكوى الى السلطة . وتكرر في «هدير» ماحدث في « الارض » من جراء الاعتماد على الاقطاعي ، إذ قاد عثمان بك القرية الى مصيرها الاليم عندما فوجىء أهل القرية بعساكر الحكومة يوقفون « هدير » المصنع بالقوة . وقدمت القرية أيضاً ضحاياها للقتل والسجن .

ولكن الفارق الوحيد بين «الارض» و «هدير» هو ان روايتنا الاخيرة تتميز بنضج الوعي السياسي ، وبتطابق الفكر التقدمي مع العمل الفني بعكس رواية «الارض» التي تمجد البورجوازيين والملاك المتوسطين وتحتقر الاجراء(١) هذا رغم مايؤخذ على الرواية من الانحراف الى السرد السياسي والمناقشات السياسية التي أراد بها الكاتب تصوير الفترة السياسية السابقة على قيام ثورة ٢٣ يوليو (تموز) عام ١٩٥٢ .

ففي رواية « هدير » لاينجح الدستور أو حكومة الوفد او الديمقراطية البورجوازية في حل مشاكل كل الفلاحين والعمال في قرية « الشيخ فضل » وفي سائر القرى والمدن الاخرى . ذلك ان مكرم فهيم كامل الوعي بحقيقة الاتجاه الاستعماري نحو ترسيخ الوجود الاستعماري في مصر والحرص عليها كمزرعة تنتج الخامات للمصانع الانجليزية . ولذلك لم يفتتح المصنع في ظل نظام استعماري اقطاعي متخلف .

ومع ما يؤخذ على الرواية من ازدياد حدة النبرة السياسية المباشرة والوقوع تحت سيطرة اسلوب كاتب كبير مثل عبد الرحمن الشرقاوي ، الا انها قدمت لنا صورة رائعة للصراع في الريف المصري قبل الثورة، وحشدت العشرات من التعبيرات والتشبيهات الريفية الصادقة ، واهتمت اهتماماً كبيراً بجمال اللغة وشاعرية التعبير .

أما الرواية الثانية « سلمى الاسوانية » فهي رواية بسيطة وتقليدية ، بعيدة عن لغـــة الشعارات السياسية . هي رواية اشبه بعملية استكشاف حاول فيها كاتبها عبد الوهاب الاسواني أن يكشف لنا عن وقائع الحياة في الريف المصري النائي بجوه الغريب وتقاليده المحنطة وعزلته عن تيار الحياة في بلادنا . وهو مجال

(١) راجع في المحتوى الثوري لأدب الشرقاوي « المجلة » عدد يوليو ١٩٧٠

جديد من المجالات التي لم تطرقها الرواية المصرية الحديثة منذ رواية « الجبل » لفتحي غانم التي تناولت الحياة في احدى قرى الصعيد الجنوبيـــة ، ورواية الشمندورة النوبية . أما رواية « سلمى الاسوانية » فهي تقدم لنا الحياة في جزيرة تقع بين أقاصي الصعيدوقرى النوبة . وهي اذ تقدم لنا الحياة الريفية في عمل تسجيلي، انما تفعل ذلك من أجل ادانة هذه الحياة بالتخلف في شكل بسيط غير مباشر . وتدور الرواية حول قصة حب لمصطفى الشاب الريفي المثقف الذي يعاني من ازدواجه بين ثقافته المتقدمة وتقاليد قريته المتخلفة ، بين حبه لفتاة المدينة « ناديا » وواجبه في الانصياع للتقاليد الريفية في الزواج من ابنة عمه « سلمى الاسوانية ». وقد آثر مؤلف الرواية ان يحافظ على هذه الازدواجية المريضة عندما دفع بطله الى الجمع بين الفتاتين استمراراً لعجز المثقف عن مطابقة فكره لسلوكه . ولا شك ان هذه نهاية متخلفة وغريبة بعد ان أدان المؤلف تخلف الحياة في قريته من خلال معارك العصي بين القبائل والاسر والتقاليد الرجعية العفنة .

اما عن عملية الاستكشاف التي اقدمت عليها الرواية فقد نجحت الى حد كبير في نقل صور تسجيلية رائعة للحياة في القرية النائية ومعاركها ومعتقداتها وسلوك الناس فيهـــا . حتى كادت هذه العملية التسجيلية أن تطمس الرواية في فصولها الأخيرة .

★ ★ ★

الأشياء الصّعبة

أحمد يوسف داوود

— ١ —

١ ـ قصيدة حب :

آهِ من قربك آه
موحشٌ حتى الدمار
العظام ارتعشت في القبر !
أنت الراقده ..
جثةٌ مطعونة .. تنتظرين الآن محراثاً ليلقي في الجسد
وخزةَ البدء وشيئاً من علامات الحياة ؟!

آهِ من قربك آه
قلبك الوعر ... وآلاف السكاكين ...
كميدانٍ طويل
تسبح الشعلة فيه دونما ضوء وتسبح
وأخيراً ؟
أفلا يصهل عِرْقٌ وهو يذبح ؟

كل ليلة
تلبس الشعة تاريخاً من الفرسان والفتح ..
وفي الظل تموت

كل ليلة ...
في صحارى الجسد الواسع حفارات فولاذ وسوط
وغطاءات من الأشواك والصمت ..
وأشعار القبيلة

دون أن يسأل عن شيء أحد
العظام انتشرت فوق القبور

عطرك انسلّ بعيداً في القفار
وحناياك التي تحبل بالذعر وبالشعر الجديد
تفتح استرخاءها إثر الولادة
عبق البترول في الأبناء ...
والأبناء من غير ثياب

وأخيراً ؟
أفلا يصهل عرّق وهو يذبح ؟
لحظات النغة القاتلة احمرت
وتلك الصلوات

سبقتنا دائماً
وحصان الزمن الفائت ، مطعوناً ، يدور
بين أوتاد خيامك
وثلوج العالم التالي ! عذراً

سبقتنا الكلمات !!
كان خيط بيننا من وحدة الخوف ، والذعر والانهيار
مع ذلك
أتراني لست أهواك إلى حد العباده ؟؟
آه من قربك آه

دون أن يسأل عن شيء أحد
العظام انتثرت فوق القبور !!

٢ ـ الرجل العاشق :

العناوين تنحني
مرحباً سيدي .. فأنت بلا همٍّ ..
صغير ومبتذل
تتوارى الوجوه خلف الزوايا
فاحترز !! آه يا سيدي ...
بسمةٌ .. وارتعاش كفيك .. وحفارةٌ ..
بعيداً ، بعيداً
في السرير الذي أنت تقصدُهُ
والمرايا التي تتوازى مع الوجوه !
بسمةٌ .. قبلة .. أمس .. كل شيء
معلنٌ .. مقفلٌ .. بعيداً بعيداً
قبل ان تبدأ التفاتك تنحل الاساطير والقبل
آهِ ياسيدي .. فأنت بلا ذعر ضئيل ومبتذل

العناوين تنحني
وسطور الكلمات فارغةٌ
والمساء الممتدّ أبعد منا
يتراخى مثل المواعيد ميتاً
ومحاطاً بمجد أسلاكه الشائكه
فانتظر سيدي ..
فأنت بلا ذعر صغير ومبتذل

لم يعد يطلع الهوى من جناح العصافير ..

أو من شذى الأزهار

سبق العالم الكبير خطانا

والهوى ساكنٌ على علب الكبريت .. صحراءَ شمع ونار

والهوى مرة يفاجئنا

في سرير ملون وجسدَ

انما .. سيدي ، سيدي

كل شيء مرتب الهمس عار

ومقاسٌ على مسافة العدد

أنت حيناً تغادر الكلمات البيض ..

مستلقيا مهزوما

والهوى بين شوقك والخوف حائطٌ يجد اسلاكه الشائكهْ

آه ياسيدي ..

وانت بلا حب صغيرٌ ومبتذل !!

٣ ــ الأشياء التي تغط في النوم

في كل يوم يخرج الفرسان من بوابة المنفى إلى ذكرى الفتوح

وهي استراحت تحت قنطرة الزمان بلا هوى

هي حملت جسداً من الأشعار والبترول فوق حصانها

وأنا أعانيها كمحرقةٍ

وأبعث في الرماد

وتحل زوبعة من الفولاذ بين تمائم الحب الصغيره

وأنا أعانيها كمحرقةٍ ...

وأحلم أنها صارت سفيره

« أحمل عالمي لها وأرحلُ

أقتلع الخيام ثم أرحلُ

أدور حول وجهها الجميل

أقتله ... يقتلني

لم يتغير أي شيء بعدُ ،

حضارة ... ميناء .. أطفالٌ بلا ثياب »

هذا العذاب .. دائماً ؟!

وأنت ؟ هل كبرت ياصغيره ؟

يا ..... هل كبرت بعدُ ؟

عمانٍ من زبد الخليج ومن عباءات الرباط

مدثرٌ بها الطريق إليك ياحبي ..

لعلك تذكرين ؟

هذا العذاب .. وأنت والسفر المقابل !

لم تفتحي الأهداب بعد ! وفي الجسد ..

سر الحوار المستكين .. وغفلة الألم الكبير

وأنا .. أظل لديك منتظراً

هواك المر والفتح المقابل !!

السّفر في العيون المقاتلة

عصام ترشحاني

لماذا انت في دمي

اصطبغت ،

وصوت تخرج صورتي القلقة ! ؟ ..

لماذا انت اسرجت الخطى

في داخلي ...

وشردت في أعضائي الشبقة ! ؟

أصائدة الضواري

أنت ... أم حالة النزوة ؟

دعي اسماءك الصغرى

دعي الكبرى ...

وخليني بعينيك المقاتلتين

أفتح قلعة الشهوة ..

* * *

أيا سلمى ..
ضعيني في الرماد
ويخري بدني
فما عرفت عصافير المحبة ..
بعدما عرفت
بأني ضعتُ في وطني
وشريني ...
إلى الطرق التي ..
مازلتُ أجهلها وتجهلني
لعلّي .. في احتراق النهد ،
والشفتين يا سلمى
أرى كفني ...

★ ★ ★

وأمضي يا أحبابي ..
وأمضي .. حيرتي زمني
وتاريخي الذي يأتي
فلا تدعوا الظنون تدور في الصمتِ
ومعذرةً ...
إذا ماغبتُ بعض الوقتِ
مع سلمى
فما ضيّعتُ أسمائي ...
ولا ضيّعتُ عنواني ...
أنا مازلت أذكركم أحبائي
فأنتم اسميَ الأول
وسلمى ... اسميَ الثاني

★ ★ ★

بعينيك المقاتلتين صيّرتُ
المدينة مسرحاً
للحرب والطعنِ
وتوّجتُ الفقير حدائقاً
من برج بابل ... آهِ
توّجتُ الفقير مخارج الاشياءِ
في وطني
بعينيكِ ...
دخلتُ معارك التكوّينِ
لكني ..
أنا المقتول صرتُ الآنَ
ياسلمى
ووجهك مدية القتلِ ...

* * *

بنيتُ ملاجئاً من نارِ
للآتين عبر النومِ
كنتُ النار في المنفى
وكان دمي ..
سؤال الخوف والتجوالِ
والهجرة
ألا لامات هذا الخوفُ ،
هذا البوح في رأسي
ألا لامات
لأني مذ عرفتُ الحب ياسلمى
رأيت الكون في نفسي

* * *

أيا سلمى اجمعيني
قبل أن تلدَ القصائد طفلها
الوثني ...
أيا سلمى املىء حوضي
وخليني ..
أنا والنار والامطار نزرعُ
غابة حمراء ..
أنا والشمس والأزهارُ نعلنُ
بيعة الفقراء
لأنّا قبل موت العصر ياسلمى
تأصلنا ،
تلاحمنا
لنكتب ثورة الغرباء

هوامش حول حادث قديم

عبدالله أبوهيف

- ١ -

لقد عرف كلّ شيء منذ أن ارتاع أمام الجثة التي يحبّها كثيراً .

- ٢ -

الهرب كان شيئاً بسيطاً .

حين تذكر عينيها لم يشعر بالخوف ، ولم يعبأ بالحراسة المشددة ، قال لها : (هـ) ، جئتك أحمل حزني ، مشيت تحت المطر ... أنا الآن بخير ، فمنذ أن عرفتك لم أشعر بالخوف . قالت : ولكنك لم تكن تعرفني من قبل .. قال : كنت متأكداً أنني سأراك ، فأنا انتظرك منذ آلاف السنين .

- ٣ -

كان ميعاد الاجتماع في تمام الساعة التاسعة ، اذن بقي هناك ما يقارب الأربع ساعات ، وبإمكانه أن يستقل سيارة صغيرة ، ويلحق بهم في (زمازم) .

[هذا المساء طلبوني إلى زمازم ، لقد حدثت أمور غريبة. كانوا مختلفين ، وأنا أيضاً لم اتفق معهم ، وكانوا يدعون أشياء باطلة تشبه التهمة ، ولكن ماذا جرى .. فقد عرفت فيما بعد أنني انسان غير موثوق به ، لأن الأحكام الصادرة من جبهة التسلل صارت قانوناً نافذاً ، ذلك التسلل الى الهدف البعيد عبر التغطيات التي يناورون بها .. وهذا بالذات ما تقصده(ر) بلفظ عتاد الرموش ، والنفاذ من الجلدة الكتيمة ؛ أما أنا فلم ألاحظ سوى الشارع المسكون بالناس والزحمة وباعة الصحف الرديئة] .

ماذا يفعل .. لم يقتنعوا .. والآن يصرّون على أن يلحق بهم في زمازمَ ، وهناك سيقررون مصير الجماعة .. قال : في فترات النمو الصحيحة يجب أن نرمي عن أرنبة أنفنا كلّ ما يمنعها من الشموخ .. ذلك أمر أساسي كي نحيا . قالوا : إن منطق الإمكانات هو الذي يملي علينا نوع المواجهة أحياناً . أنتَ ستقفل علينا خط الرجعة بهذه الصورة ... نحن نحبك ، وهذا يفسر قبولنا بك معنا .

لقد وقف مبهوراً أول مرة جاء فيها إلى دمشق ، كان ينتظر دقات الساعة كلّ صباح في انتظار موعد العمل . ودائماً كان يخشى أحداث الليل والنهار على حدّ سواء ، ويحبّ كلّ المواعيد التي تتحقق في حينها . وفي لقائه مع جاسم سوّاس ايقن أن كلّ ما يعرفه قد اتسم بطابع مغاير لما مضى ..

— ٤ —

قلتُ لـ (ر) : أنا لست مستعداً لتحمل أخطاء الآخرين .. والبحث عن الأسباب أمر مرهق كما تعرفين .. أهلي يحتاجون إليّ دائماً . إن الاولاد الصغار ينتظرون قدومي بفارغ الصبر .. قالت : هذا شيء قاتل .. ولكن التضحيات أمر ضروري أيضاً . صحيح انك فقير ، وهذا ليس سبباً كافياً لتجلد نفسك بالامنيات التي لن تتحقق ..

ثم ابتسمت بحزن ، فركض قلبه كجواد جامح ، بينما تسمرت قدماه في الارض كشجرة عارية مسكونة بالريح والشتاء .. وظل الصمت يلازمها ، فتدفقت من شفتيهــا ضحكة كنهر ربيعي ، وتراقصت آلاف القناديل في ليل بعيد ..

[حدثتها عن قريتي حيث تختبىء الأشياء في حناياهــا كالطيور ، وعن المدينة .. الأضواء والدهشة و .. ثم حدثتها عن نومي في الفندق يوم وصلت دمشق لأول مرة . قلت لها : (ر) سأدفن وجهي في وجهك طالباً الحماية .. ولكنها تركتني أعانق الكلمات التي ثرثرت بها كما اعترفت بذلك حين غادرت البيت غاضبة] .

- ٥ -

كانت هناك كتلة من الانحرافات تنتشر في جسده ، وحوله تتجمع المواسيم لمناسبات قديمة . تذكر أن جاسم سوّاس قال له : ليس لدي الوقت كي أحقد على الآخرين . كلّ ما أريده هو أن أحمي الجماعة ، وأنا على ثقة بأنها ستفعل ما عجزت عنه أجيال .. حدثته : أنا لا أعرف كيف تتطور للأمور ، ولكنني متيقن أننا لن نبقى على هذه الحال ، أنا لا استطيع أن أفعل شيئاً ، لقد فقدت الصبر ، كرهت التمامل . قاطعه بنزق : أنت تطالب بأكثر مما نستطيع ، هذه مصيبتك .

ومنذ تلك الفترة قتل كلّ شيء عن جاسم سوّاس في حياته ، حتى منحه الثقة بأنهم سيفعلون شيئاً في يوم ما .. وبقيت (ر) . قال لها : الصحراء قاسية ولذيذة ككلّ الوجوه التاريخية في ساعات المحنة ، تظل تشعّ في شتاءات الحزن والعذاب .. قالت : اذن لم يبق هناك سوى الرحيل .. يبدو أنه أصابنا الوهن.. وزمازم لن تعطي الحلّ .

قال : (ر) ، نبقى نحن ..

[بحثت في كل الاتجاهات ، لم يكن الحزن ، ولا الخيبة ، وانما الألم والخلاص . حتى مشكلة جاسم سواس لم تعد تؤرقني ، فهو غير قادر على العمل ، وجماعته غير قادرة على الفهم والحركة .. والمشكلة الآن هذه الأمنيات التي لن تتحقق] .

ثم قال : (ر) ، أنا مصرّ على مواقفي ..

-٦-

كيف تطبع الكتب ؟

وكيف يتعامل الناس مع الظروف السيئة ؟

هذا ما كان يجهله . وهذا ما جعله يتوجه الى المدينة . لقد عرف كيف تختفي الأشياء ، وكيف يتم مزج الألوان في الصور النافرة والهادئة .. لذا كان همه الوحيد أن يقنعهم بجدوى ما يقول ..

في الخلاء قابله جاسم سواس ، لم يحد عن موقفه .. قال :

– إني أصرّ على خروجي من التنظيم ..

-٧-

كان بيتها أول بيت يصادفه .. قال لها : « هـ » ، أنت طفلة منفية في شوارع العالم ، أنت طفلة منفية منذ آلاف السنين ! وبينما كان يحتضن وجهها الصغير قالت : أحب ان تحتويني دائماً ، أين نمت البارحة . قال : كنت أنتظرك فوق المرتفعات ، انتظرك مع الخيول المهاجرة ، كي نرحل نحو الناس والهواء .. ثقي أن هذا ليس عزاء ، أجل ليس عزاء .

(الصخب لازال يتوقل هذا المكان ، وأنا مرغم على التحدي فأمي لايمكن أن تعيش عمرها كله حزينة ، وأختي لايمكن أن تبقى هكذا دون حبيب تعانق الدهشة والسذاجة ، بقي جاسم سواس وأنا بدوري لم أقبل هـذا الوضع . . إن لي قدرتي على التصرف) .

قال : كان لابد مما حدث ، هم لم يمنحوني الفرصة : والآن ، اسكتي . . قالت : اطفىء النور .. بعينيها تهمس وبحجم الصمت . . كان يداعب أصابع يديها ، قال : هل تعرفين « ر » ؟ قالت : أجل ، التقيتها صدفة ، قال : وهل كانت تغني ؟ قالت : لا . . كانت تحدق بنار المدفأة وتقرأ في سرها عن أحداث قديمة . لقد عرفتها ، كانت تبكي بصمت . . اخلع رداءك الثقيل وتوسد هـــذا الكرمي .. اقترب من الموقد ، وقال : هل استطيع أن أنام ؟ . . .

— ٨ —

كلهم كانوا يقولون هذا ، كلهم عرفوه . .

كان غريباً . . وإلا لما تمكن أن يترك بصماته على جماعته ، ولما تمكنت أشياء هذه الارض أن تؤثر فيه فتغور في أعماقه وتثير فيه عالماً مجهولاً فيبكي .

— ٩ —

(الانطفاء يتلاشى خلف رمـــاد الليل والرغبات ، والرمل شرع يغطي ركبتي فابحث بعينين نصف وحشيتين عن فرصة الانقضاض ، وفي عروقي يهدر قطيع ينحدر .. ينحدر بصخب وضجيج).

ـ هل تحبين حيدر حيدر ؟

ـ أجل . .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه يحب السفر .

لقد كره الذهاب الى زمازم . إن جاسم سواس وجماعته لا يمكن ان يصلوا الى نهاية المطاف . أعطاه أحدهم كتابات عسكرية لاتحمل خاتم الرقابة ، قرأ فيها دون جدوى ، كان يرهقه حزن العشاق وموت المناضلين .

(نقل لي أحد أفراد جماعة جاسم سواس قرارهم :
« ....
عد الى رشدك ، يجب أن تلتزم بخطة العمل)

توقيع »

أضواء النيون لازالت تتسرب في شوارع دمشق كشمس خافتة ، وزمازم تموت مثلما يموت كل شيء عن جاسم سواس في حياته .. كان متأكداً من صدق مواقفه .. قالت (ر) : أنا سأذهب الى بيروت .. هناك سأعيش بدون هم . قال : هذا ليس حلاً .

– ١٠ –

لقد تلاشى الانطفاء ، ورمل الصحراء يهدر في عروقه .. يهدر بصخب وضجيج . واذ أصاب الأشياء غضب مفاجىء تساقطت الاوراق اليابسة والبراعم غير الناضجة ، فبانت الأغصان الهزيلة .. فالشمس غسلت حتى شوارع المدينة ، لقد تغير لون الجدران ، صار طعمها باهتاً .. نزع ألبسته كلها ، وبقي عارياً في الرمل .. يحدق في أشعة الشمس ، صبغ الاوراق بمادة سائلة ، صارت الكتابة تختفي ، تناوبت العتمة والاضواء ، تناول رأسه بيده ، عصر الاوراق من الحروف ، جمعها في إناء ثم واجه بها الشمس ، وعندما جفت الكلمات استبدل وجهه بها .. سقطت الشمس على عينيه كجثة .. كانت يد جاسم سواس تهزه .. والليل قد حل ، وخلفه وقفت جماعته ، وحين لمح عينيه تعزى فيها شيء يكرهه ، فمضى من أمامهم ، ارتطم وجهه بالجدران .. كان صوته يختنق في الغرفة .

السّمات الكبرى للأدب الغربي الحديث

د. حسام الخطيب

شهد القرن التاسع عشر بزوغ عدد من الاتجاهات والمدارس الأدبية ، التي لم يعرف لها الادب التقليدي في الغرب مثيلاً من قبل ، وشغلت الابتداعية (الرومانتيكية) نصفه الاول ، وتقاسمت نصفه الثاني الواقعية الطبيعية والرمزية والبرناسية .

(*) يهدف هذا البحث التصنيفي الى عرض الخصائص المشتركة بين الاتجاهات الأدبية المختلفة للقرن العشرين والربط بين كل خاصة أدبية وبين الظاهرة أو المدرسة التي تمثلها أكثر من غيرها . ويعترف المرء بأن هذا المنهج يجنح الى مدرسية تبسيطية ، ولكن يبدو أن الاختيار محدود جداً أمام الباحث الذي يهدف الى اعطاء فكرة شاملة غير مختصة عن أدب هذا القرن، وتحديد المفاتيح الأساسيةاللازمة لفهمه. وقد روعيت منهجية متشددة انطلاقاً من الاعتقاد بأن غياب المنهج في دراساتنا الأدبية قد أفسح مجالاً كبيراً لاختلاط المفاهيم واضطراب القيم .

وحين أطل القرن العشرون كانت الطبيعية والرمزية في طريقها الى الانهيار ، وظهرت مدارس عديدة ذات طبيعة موقوتة ، واختفت الواحدة بعد الاخرى . وكان تعدد هذه المدارس دليلا على أن القلق اصبح الطابع الاول لهذا القرن . وخلال الحربين العالميتين الاولى والثانية ظهرت كتابات جيدة متصلة بتجربة الحرب المرة ، وعقب كل منها كان الادب يعكس شعوراً عاماً بالخيبة والمعاناة المؤلمة والتشاؤم .

وعلى الرغم من استمرار التيار الادبي التقليدي حتى يومنا هذا ، فإن أدب القرن العشرين يختلف اختلافاً جوهرياً عن كل ماسبقه من ادب، تماماً كما ان الفكر والعلم في القرن العشرين من طبيعة مختلفة . وفيما يلي محاولة للالمام بأهم الخصائص المشتركة للأدب في هذا القرن :

١ ــ النسبية والتحرر من القواعد :

في هذا العصر ، عصر الذرة والفضاء ، ليس من معيار قائم بذاته ولا من أبعاد ثابتة ولا من احكام فكرية مستمرة ، وكل شيء نسبي ومتغير بما في ذلك مفهوما الزمان والمكان . واذاً فعلى كل صاحب موهبة فنية او ادبية ان يستعمل طريقته التعبيرية الخاصة ولغته الخاصة لينقل الى الناس رؤية شخصية للعالم . ولم يبق من مجال للتفريق المصطنع بين مشكلات المبنى والمعنى او الشكل والمحتوى، فالمهم ايجاد وسيلة للتعبير عن الانسان الجديد في علاقته الجديدة بالكون . ومن هنا تعددت الاتجاهات الادبية والمذاهب الفنية واختلط الحابل بالنابل وانعدمت المقاييس وكثرت الشكوى من الهذر والثرثرة والغثاثة . ولكن من ذا الذي يعطي لنفسه الحق في اصدار الاحكام بعد أن اصبحت التجربة فردية ونسبية وبعد أن اصبح مفهوم السلطة الادبية والقاعدة الفنية مفهوماً عتيقاً ؟.

ومن هنا يمكن أن يفهم الانسان بروز ظاهرة مثل الشعر الحر واستطاعتها ان تفرض نفسها على شعر هذا القرن . وهي تقوم على رفض النظام الخارجي للنظم التقليدي والتأكيد على ان موسيقى الشعر هي ايقاع قبل كل شيء لا لعبة للأنغام الموسيقية ، وعلى ان الاساس الحقيقي للايقاع هو (الالقاء الفطري) لا الاطار السطحي للطقوس العروضية . ان ظاهرة الشعر الحر استطاعت أن تسيطر على معظم الشعر الحديث في اوروبا وامريكا ابتداء من بول كلوديل وبول فاليري الى إزرا باوند وت. س. إليوت. وكان الرمزيون هم الذين مهدوا لهذه الظاهرة انطلاقاً من الاعتقاد بان التطور غير ممكن ضمن الاشكال الفنية التقليدية . وأتى بعدهم بول كلوديل (١٨٦٨ — ١٩٥٥) وعمل على توسيع استعمال الشعر الحر وحاول ان يعطيه مضموناً حميماً. وانتقد الميل الاتباعي نحو الشعر المسبوك، وكذلك الميل الابداعي الى الاسهاب الخطابي، واعتبرهما خارجين عن طبيعة الشعر الحقيقية. وأراد للشعر ان يحترم «بعض الحرارة وصفة التوتر الروحي ونسبته» . وعنده ان بيت الشعر ايقاع قبل كل شيء ، ايقاع لا يستمد قانونه من مثل اعلى من التناغم المستقل عن معناه العميق وانما هو ايقاع متجاوب بشدة مع ايقاعنا الحياتي ، مع ايقاع القلوب التي تخفق ، ذلك أن الشعر هو (الكلام الصافي)(*) . وها هو تعريف الشعر عند كلوديل على لسان إحدى شخصيات مسرحيته (المدينة) :

يا بني ! عندما كنتُ شاعراً بين البشر
ابتكرت بيتاً لا وزن له ولا قافية
واستوعبت في طيات قلبي وظيفة مزدوجة متبادلة ،

(*) ألبيريس : الاتجاهات الادبية في القرن العشرين ، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٧٢ — ٧٣ .

استنشق بها الحياة لأردها
كلمة مسموعة
في زفير أسمى .

وبعد كلوديل أتى (بول فاليري) وثبت ظـاهرة انتصار الشعر الحر وربطها بفهم أشمل لمسألة الخلق الفني .

وهكذا يمكن اعتبار الشعر الحر ابرز الظواهر التي تمخضت عن نسبية المعايير والقيم في عصرنا المتغير ، وان النظر اليه من هذه الزاوية كفيل بوضعه في إطاره العصري المناسب وتخفيف الحدّة التي تطبع موقف متذوقي الشعر منه سلباً أو ايجاباً ، ولا سيما في بلادنا العربية حيث يسيطر تراث شعري خصب شديد التقيد بالقواعد الخارجية للنظم .

الرفض والصدق :

اتسم ادب هذا القرن بالرفض المطلق لكل ماهو قائم اجتماعياً وسياسياً ، واصبح من أهم علاقات الحدّة في الادب الاستخفاف بالدساتير الاخلاقيـة والمواضعات الاجتماعية و كذلك بالقواعد الفنية (كما أشرنا سابقاً) . وهناك اجماع على ان مراعاة القانون نوع من المراءاة المتبصرة ينافي الصدق والامانة الداخلية ، وهما الصفتان اللتان يعتز بها الاديب المعاصر أيما اعتزاز . وقد وضع جاك بريفير مسألة الصدق تجاه الذات بهذه العبارة الواضحة :

« ان يكون الانسان محترماً ، فهذا يعني أن تكون لديه افكار قابلة لأن يعترف بها . لكن أن يكون المرء صادقاً فهذا يعني أن تكون لديه جميع الافكار »(١) .

---

(١) ألبيريس : الاتجاهات الادبية في القرن العشرين ، ترجمة جورج طرابيشي ، منشورات عويدات ـ بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٧٢ ــ ٧٣ .

ويبدو ان ظاهرة الرفض نشأت أصلا من فكرة الاحتجاج على الحرب وعلى الانظمة السياسية التي جعلت من هذه الأداة الجهنمية وسيلة لتصفية الخلافات والمنازعات . وقد تمثلت الموجة الاولى من هذا الاحتجاج في (الدادية) ابان الحرب العالمية الاولى ؛ اذ اجتمع لفيف من الشبان الذين رأوا في الحرب قضاء على الانسان وقيمه وأعلنوا الثورة على العلم الذي يقدم وسائل الحرب والدمار ، وعلى الفلسفة التي تسعى دوماً لتسويغ التضحيات وتذكية الأسباب الدافعة لها ، وعلى الفن الذي يقدم روائعه الفنية لصالح المنتصرين . وقد اعلنت (الدادية) ان الحرب تعني تزيفاً مفجعاً للغالب والمغلوب على السواء، وليس من ورائها سوى تعديل الحدود واقتسام المستعمرات . ولقد بشرت (الدادية) بانهيار النظم القائمة وانهيار الحضارة، وكانت ثورة ضد كل ما هو عقلاني واجتماعي، وتعبيراً عن الصميمي بلغة طفولية بريئة . وبلغت (الدادية) أوجها سنة ١٩٢٠ وأخذت تنعي مظاهر الوجود الانساني جميعاً :

« ما من رسامين ولا من ادباء ، ولا من موسيقيين ولا من نحاتين ولا من ديانات ولا من جمهوريين أو ملكيين ، ولا من امبرياليين ولا من فوضويين ولا من اشتراكيين ولا من بلاشفة ولا من سياسيين ، ولا من بروليتاريين ولا من ديمقراطيين ولا من برجوازيين ولا من أمن عام ، ولا من اوطان ... كفى من هذه السخافات والحماقات . لم يبق شيء . لم يبق شيء . شيء .. شيء .. ولا شيء ... »(١) .

لقد اختفت (الدادية) بعد الحرب الاولى، ولكن الرفض استمر حتى

---

(١) كروزيه ، موريس : العهد المعاصر ، بحثا عن حضارة جديدة ، ترجمة يوسف وفريد داغر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٠ – ١٢١ .

اليوم بأشكال مختلفة، بعضها مجرد احتجاج انفعالي وبعضها عن وعي كامل . ان الحرب العالمية الثانية خلفت وراءها موجة من الرفض شبيهة من بعض الوجوه بما خلفته الحرب الاولى . ولعل مجموعة « الشبان الغاضبين » في بريطانيا تمثل هذه الظاهرة أصدق تمثيل . فقد ظهرت هذه المجموعة في الخمسينات وثارت على المؤسسة القائمة ورفضت كل معطياتها السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية، وتحدّت كل ما هو رسمي ومتعارف عليه في المجتمع البريطاني التقليدي . واتخذ هذا التحدي مظاهر عديدة منها : ارتداء ثياب غير لائقة ، وممارسة حياة التشرد ، والعداء للثقافة الجامعية ، واعتبار التعليم شيئاً مخجلا للانسان ، وعدم الاكتراث بكل عمل جماعي سواء أكان سياسياً ام اجتماعياً ، وعدم تبني أي اتجاه . فهم في وقت واحد « ضد أكاذيب المحافظين ووعود العمال الكاذبة » ، وكانت ثورتهم بمجموعها ذات طابع سلبي. واتسموا بنقص واضح في النضج الفني ، وتهربوا من مسؤوليات الالتزام . وقد عالج جون وين هذه المشكلة في تمثيليته (أسرع بالنزول Hurry on Down) ووضع اصبعه على صميم المشكلة ، وهي الرغبة في التحلل من الوضع الاجتماعي وفي الوقت نفسه التمتع بوضع مقبول في المجتمع بعيداً عن أي التزام . وفي نهاية التمثيلية تتضح المشكلة تماماً :

« الحياد ، لقد وجده أخيراً . انتهى الكفاح الدائر بينه وبين المجتمع بالانسحاب » .

ومن ابرز ادباء الجيل الغاضب جون أوزبورن مؤلف تمثيلية (انظر الى الوراء بغضب Look Back in Anger) سنة ١٩٥٦ ، وكنغسلي اميس مؤلف (جيم المحظوظ Lucky Jim) سنة ١٩٥٤ ، و « ذلك الشعور غير المؤكد » (That Uncertain Feeling) سنة ١٩٥٥ ، ولعله أعمقهم فناً ، وقد أثبت على

الاقل انه اقدرهم على الاستمرار. ويذكر مع هؤلاء الغاضبين أيضاً كولن ويلسون Colin Wilson مؤلف (اللامنتمي The Outsider) وعدد آخر من المؤلفات التي تنحو منحاً فكرياً – ادبياً . وقد اتجه ويلسون في الستينات نحو استنباط فلسفة وجودية ايجابية جديدة تمثلت مبادئها في كتابه (نحو الوجودية الجديدة Introduction to the New Existentialism)سنة ١٩٦٠ .

إن ظاهرتي الرفض والصدق مرتبطتان معاً . وملزالتا قادرتين على تحريك شباب هذا العصر . وان موجة الاضطرابات التي أثارها الشبان الجدد في السنوات الاخيرة لم تكن سوى رفض للخطأ الاخلاقي الذي تقوم عليه المؤسسات البرجوازية واصرار على مواجهة العالم مواجهة « صادقة مع الذات » بلا رياء ولا مواربة . وفي المجال الادبي تتمثل هذه الظاهرة ، كما يقول ألبيرس في :« اتجاه الى الفضح الدائم لما في الانسان من ميل الى الكوميديا التي تضفي عليها الاخلاق اقنعة ، والمطاردة الماثلة – وهي شكل آخر من أشكال المطلق الرومانتيكي – لـ (الصدق) . » (*)

٣ – الاهتمام باللاشعور وبالانسان الداخلي :

ليس الاهتمام باللاشعور ظاهرة ادبية جديدة . فمنذ القديم كانت الزوايا المعتمة في النفس الانسانية ميداناً لاكتشافات الشعراء والادباء . ومعلم التحليل النفسي الحديث فرويد ** اعترف دائماً بتأثير الادب في افكاره . وحين وصف

(*) البير : الاتجاهات ... ص ٦١ .

(**) كان سيغموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) أول من طور منهجياً فكرة «العقل اللاواعي» واهميتها في تفسير السلوك غير العقلي للانسان . ومن أجل فهم (العقل–

فرويد ، بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين ، بأنه (مكتشف اللاوعي) انكر هذا اللقب وصحح الكلام بقوله :

« ان الشعراء والفلاسفة قبلي اكتشفوا اللاوعي ، وما اكتشفته هو المنهج العلمي لدراسة اللاوعي » *

وبتأثير فرويد، وبتضافر عوامل فكرية واجتماعية، اصبح الاهتمام باللاشعور سُنَّةً من سنن الادب في هذا العصر لايكاد يخلو منه إنتاج ادبي . واكبر ادباء العصر مثل فرانز كافكا وجيمس جويس وتوماس مان وت . س . ايليوت كلهم متأثرون بنظريات فرويد ، على اختلاف شديد في التركيز على هذه الناحية أو تلك من تعاليمه او في فهم منهجه .

وتعد «السريالية» تجسيداً فنياً لمنهج فرويد لأنهـــا قامت على ركيزتين أساسيتين من ركائز التحليل النفسي الفرويدي،وهما: الحلم والطفولة. وعندالسرياليين أن الانسان حيوان حالم لاسبيل الى تحقيق حلمه الا بالعودة الى الطفولة ، حيث كل شيء طليق والحلم بلا حساب . لقد أخذت السريالية من فرويد فكرة التلاحم العضوي بين الحلم والواقع وضرورة ايجاد طريقة جديدة للوصول الى المعرفـــة والكشف عن « الانا » المستقلة عن عادات الفكر المتغيرة وقيود الحياة الاجتماعية. وبالاضافة الى فرويد تأثرت السيريالية بالدادية وأخذت عنها مبدأ رفض المنطق والقيم والمؤسسات القائمة والثورة على كل ماهو عقلاني واجتماعي . ان مؤسس السريالية

ـــ اللاوعي) وضبطه ابتكر طريقة التحليل النفسي الهادفة الى كشف رواسب الطفولة والعقد اللاشعورية التي توجه سلوك الانسان من حيث لايدري. وقد كان لمنهج فرويد تأثير عظيم على الفكر والفن المعاصرين .

(*) انظر : حسام الخطيب : « اضواء على موقف فرويد من الفـــن » ، الموقف العربي ، ع ٦٥ ص ٣ ، ٥ آب ١٩٦٥ .

أندريه بريتون هو عالم نفس انفصل عن الدادية وقد عرف السريالية في البيان السريالي الاول سنة ١٩٢٤ بما يلي :

« السريالية هي حركة ذاتية نفسية صرفة يقصد بها التعبير، شفاهاً او كتابة او بأي طريقة اخرى ، عن العمل الواقعي للفكرة - وهي املاءات فكرية في غيبة كل ضابط يفرضه العقل وبعيداً عن كل انشغال جمالي او اخلاقي .

وهكذا تهدف السريالية الى ايقاظ الانسان على رؤية جديدة للاشياء بعيداً عن رقابة الفكر التنظيمية ، وتكون نتيجتها الانعام على مجمل الحياة بموقف جديد تحل فيه المرونة والانطلاق محل الصلابة الذهنية (الديكارتية) .

وتقول السريالية ان الخواطر والنبوءات التلقائية الحرة اللامنطقية تمثل واقعاً اسمى من الواقع الذي يمثله الادب العادي والحياة العملية الخاضعان للرقابة المنطقية المستمرة . فالسريالية اذن ليست كالابداعية أو الصوفية هرباً من الواقعي الى عالم المثال او الصورة بل هي :

« تعبير عن ارادة التعميق الواقعي ، والقبض على الضمير بوضوح شديد دائماً ، وفي الوقت نفسه بشغف شديد دائماً بالعالم المحسوس » (*) .

وهكذا يختفي عند السرياليين مفهوم الفن للفن ليفسح المجال لمفهوم الاكتشاف . فالشعر قبل كل شيء وسيلة للتقصي عن العالم ، وهو « تفسير للواقعية صادر عن خلل عقلي » ، وكل شيء هو شعر عند الشاعر الحقيقي ، لأنه موقف إزاء الأشياء وحالة ذهنية وأخلاقية ، وطريقة للنظر وطريقة للتصرف تجاه

(*) فان تيغم : المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا ، ترجمة فريد انطونيوس ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٣١٧ ، انظر ايضاً ص ٣١٢ ، ٣١٩ .

العالم . فيجب قبل كل شيء أن يعاش الشعر ، وأما التعبيرعنه بالكلمات والألوان فيأتي بالدرجة الثانية .

وتؤكد السريالية بشدة على الاعتقاد بوحدة العالم الجوهرية ، وترفض الفصل بين الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية ، وتعتبرهما عنصرين متحدين وغير متناقضين . ومن هنا كان تركيزها على أهمية الحلم باعتباره أثمن كشف عن الواقعي الذي هو الغرض الجوهري للشاعر :

« انني أؤمن بايجاد حل في المستقبل لهاتين الحالتين المتناقضتين جداً في المظهر ، الحلم والواقعية ، بنوع من الواقعية المطلقة ، بما فوق الواقعية * ، إن جاز هذا القول » . ويترتب على ذلك عند السرياليين ان السحري والحلم ليسا هربا ولا ملجأ ، فالحلم ليس الا مظهراً للواقعي . ويعتقد الشاعر السريالي ان كل شيء مشترك بينه وبين الأرض ** .

ومن هنا كان العالم الذي يقدمه الفنان السريالي عالماً متميعاً غائم الابعاد لأنه يعتمد على التلقائية والتداعي الحر ويرفض القوانين والقواعد الشكلية . وهو غير مطالب أمام القارىء بأي تفسير أو ايضاح . والساعات الرخوة التي يقدمها سلفادور دالي في لوحاته غير قابلة للفهم شأنها شأن أشعار بول إيلوار وأندريه بريتون ، وكذلك العبارات السريالية المشهورة الدارجة مثل : « القبلة معدية » و « اضرب امك وهي مازالت شابة » . .

وقد بلغت السريالية ذروتها في فترة مابين الحربين واصابها التصدع مع

(*) هذا هو المعنى الحرفي لكلمة Surrealism = Super realism

(**) المصدر السابق : ص ٣١٥ .

بداءة الحرب العالمية الثانية . وأمعن قسم من كتابها في مغايرة الأفكار في حين جنح قسم آخر الى الماركسية واليسارية . ومع ان هذه المدرسة لم تنتج آثاراً أدبية مهمة فإنها تركت طابعها القوي على الانتاج الفكري والفني والأدبي لعالمنا المعاصر .

ولم يقف تأثير هذه الموجة الطاغية من الاهتمام باللاشعور ، أي بالانسان الداخلي لابتصرفاته الخارجية ، عند حدود السريالية وما شاكلها من الاتجاهات . فهناك نواح أخرى عديدة أهمها اعتماد الرواية الحديثة اعتماداً رئيسياً على (تيار الوعي Stream of Consciousness) كروايات جيمس جويس وفيرجينيا وولف ووليام فوكنر وكثيرين غيرهم من مشاهير الروائيين في هذا العصر . وتتميز رواية تيار الوعي بمادتها أكثر مما تتميز بهدفها أو موضوعها أو تقنيتها * . وفي محاولة لتبسيط المسألة يمكن أن نقول إن حركة الفكر والشعور تتم على مستويين : مستوى الكلام ومستوى ماقبل الكلام . وتيار الوعي مرادف للتجربة العقلية والنفسية كيفية وماهية على مستوى ماقبل الكلام ، أي قبل ان تصبح التجربة في نطاق الوعي . والميزة الاساسية لمثل هذه المادة انها تكشف عن أعماق الانسان قبل أن تتدخل رقابته العقلية لتقدم مادة من نوع آخر زيّفها العقل المتأثر بالعوامل الثقافية والاخلاقية والاجتماعية .

(*) من الخطأ السائر اعتبار (تيار الوعي) تقنية مرادفة للحوار الداخلي Monologue intérieur ، إذ ان لرواية تيار الوعي تقنيات مختلفة منها الحوار الداخلي والتداعي الحر Free Association . من أجل التوسع انظر :

Humphrey, Robert: Stream of Consciousness in the Modern Novel. University of California Press, U.S.A., 1954.

ولعل أعظم مثل لتيار الوعي رواية (يوليسيز Ulysses لجيمس جويس *
وكذلك رواياته الأخرى ولا سيما « صورة الفنان باعتباره شاباً » . وتهدف رواية (يوليسيز) الى القول ان الوجود ملهاة والانسان يلعب الدور الرئيسي في هذه الملهاة ، ولكنه دور غير منسجم ويستدعي الشفقة . ووظيفة الفنان ان يهجو هذا الدور بلطف ودون مرارة وفي منأى عن الهزل والتهريج . ولكي يتأتى للمؤلف ان يقوم بهذا الهجاء الموضوعي فانه يسل نفسه من وجود الرواية بمنتهى الاناقة، ويتصرف مثل إله خالق غير مرئي متجرد عن الهوى يصرف أمور أشخاصه من قدامهم ومن خلفهم ومن خلالهم . وقد ساعدت طريقة الحوار الداخلي المباشر على ابعاد بصمات المؤلف عن سير الرواية التي تتدفق تدفقاً ذاتياً بضمير المتكلم دون أن يقطع هذا التدفق تنقيط من أي نوع أو تقديم للأشخاص أو اشارات أو ضمائر الا ماندر . وحجة (يوليسيز) في ذلك انها رواية تصور محتوى النفس الداخلي وهو غير متشكل وغير منظم وغير محدود وغير مفهوم بالنسبة للآخرين . ولكن هل كانت يوليسيز غير مفهومة؟ نعم. انها لاتفسر بالكلام العادي، ولكنها مع ذلك عالم كامل ممتع عامر بالمعنى والايقاع . وقد فصلها المؤلف على نمط (الاوديسه) ليعطي مأساة الانسان معناها الملحمي من جهة ، وكذلك ليجعل تطور موضوع الألياذة وصورها ورموزها صُوَى داخلية ترشده في طريقه المعتم وتربط مابين عالم الفرد الداخلي وعالمه الخارجي المؤلف من الولادة والحياة اليومية والموت ، والمتصف بالاستمرار والحركة ، والمغلف بالماضي والاسطورة .

---

* ولد جيمس جويس (١٨٨٢–١٩٤١) في دبلن بايرلندا وتخصص باللغات. وتنقل بعد ذلك في اوروبا وألف مجموعة محدودة من القصص القصيرة وبضع روايات اعتبرت فتحاً جديداً في عالم القصة . وقد لاقى صعوبات في نشر رواية (يوليسيز) . واخيراً نشرها في باريس وظلت ممنوعة في بريطانيا وامريكا مدة من الزمن .

واذا كان لابد من الاشارة الى « الحادثة» في (يوليسيز) فلنقل بالاختصار انها قصة يوم في دبلن ، وهو السادس عشر من حزيران سنة ١٩٠٤ . وهذا النطاق الزمني القصير هو أليق بالقصة القصيرة منه بالرواية . والحق ان يوليسيز بدأت قصة قصيرة ، ولكنها امتدت على يــد جويس حتى أصبحت ملحمة حديثة من ٧٦٧ صفحة .

ويقول القسم الأول من القصة ان ستيفن ديد الوس الشاب الفنان يقطع دراسته في باريس ويعود الى دبلن ليتدارك أمه وهي على فراش الموت . وتطلب اليه امه ان يصلي من أجلها ، ولكنه يمتنع لأنه فقد ايمانه بالكاثوليكية بل أصبح ضدها . وهذا الموقف يورثه احساساً بالاثم . ثم نرى ديد الوس في حياته اليومية : تناول الفطور ، القاء درس تاريخ ، التنزه على الشاطيء . ويدور القسم الثاني حول ليوبولد باوم وهو « يوليسيز » الرواية ، ونرى اثني عشر حادثاً من أحداث حياته اليومية كحضور جنازة ومنازعة ومغازلة الخ . .

ويلتقي البطلان في آخر النهار في بيت للدعارة . ويدور القسم الثالث حول مغامرتين لديد الوس وباوم . وتنتهي الرواية بفصل حول الاحلام الشهوانية لمولي زوجة باوم .

وقد رتبت فصول القصة وحلقاتها على نمط مغامرات يوليسيز في الاوديسة .

والخلاصة ان « يوليسيز » كما يقول كرونين : « لها أخطاؤها مثل الشذوذ والاستعراضية المجودة ، والاغراق في الميكانيكية . ومع ذلك بفضل الطريقة التي تحتوي بها الحياة اليومية ، وبفضل اسلوبها الذي يمنحها الكثير مما انكر عليها من قوة الشعر ونسجه ، فان يوليسيز صورة كبرى ، وربمــا كانت اهم حادث منفرد في الانتفاضة العظيمة التي حققها هذا القرن » . *

---

* Cronin , Anthony : A Question of Modernity , Lonbon .

٤ – الاشكال والتركيز على المصير الانساني :

يتصف أدب هذا القرن بوجه عام بالتوتر والجهد والبلبلة والغموض، وتفتقد فيه ماعهدنا في آداب العصور السابقة من واطمئنان وأناقة ودقة ووضوح وصنعة فنية » ، ويرجع ذلك الى أن الادب الحديث اشكالي يريد ان يوقظ القارىء إزاء المشكلات ولا يزعم انه قادر على حلها ، ذلك أن المشكلات نفسها تبدو غير قابلة للحل ، ففي حين كان الادب الهادف في القرن التاسع عشر يتركز حول مشكلات انسانية واجتماعية وسياسية وسيكولوجية واضحة المعالم ويمكن مداواتها بحلول منطقية ، يصب الادب الاشكالي اليوم اهتمامه على الصدى الميتافيزيقي والاخلاقي لافعال الانسان ومصيره انطلاقاً من التسليم بأن كل مصير هو مصير خاص وان لكل انسان حقيقته وان أي مرجع خارج عن الانسان لا يستطيع أن يحدد للانسان مصيره ، وتبقى وظيفة الاديب اذن ان يضع شخصياته في صميم المشكلة وأن يترك لها تلمس طريقها من خلال المعاناة والتجربة الواعية ، ومن هنا تنجم الاشكالية وما يتبعها من غموض وبلبلة . ان ما يصوره الادب الحديث لايقع ضمن نطاق المشكلة الاجتماعية كالمساواة والتقدم والرفاه المادي والاجتماعي ، ولا ضمن نطاق النوازع النفسية كتحقيق دوافع العظمة أو الحقد أو الحب .

« ان النابض الذي يصدرون عنه والهدف الذي ينطلقون منه لاينتميان البتة الى المقولات الاجتماعية ، ولا تحركها الاهواء . انهم يسعون في الحقيقة وراء ما يسميه (مالرو) قدرا ، أي وراء معنى لازمني لحياتهم . *

* البيريس ، ترجمة جورج طرابيشي : الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين ، عويدات ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٣٩ .

وطبيعي ان هذا الحكم متصل بالاشكال القصصية كالرواية والمسرحية أكثر من غيرها من الاشكال الفنية، لان القصة تشكل وسيطاً رائعاً خصباً لوضع الانسان في إطار العوامل المتحركة التي تدفعه دفعاً الى المعاناة والوعي ومواجهة مصيره . ويلخص البيريس الفارق الاساسي بين الرواية القديمة والحديثة على النحو التالي :

« لقد بات التخيل الادبي اذن لا يقف، كما كان يفعل في الواقعية المتأخرة لعام ١٩٠٠ ، عند مظهر الكائنات الاجتماعي وعواطفها ولا حتى عند حركات أهوائها . ان الواقع الذي يهدف اليه الفن قد غير من طبيعته . فوراء الاحداث العينية والوقائع والحركات الظاهرية والكلام ، أي وراء كل ما يشكل خيوط التخيل الروائي ، يتطلع الكاتب الى الواقع العميق الكامن في كل فرد. لافكره وقلبه ، بل ما يسمى روحه أو ، بتعبير أدق ، مصيره » *

ومن الجدير بالذكر ان هذا الاتجاه الى التركيز على المصير الانساني لم يتخذ شكل تأمل غيبي معزول عن الإطار الحياتي الواقعي ، بل حاول ان يثير مشكلة الانسان « المصيرية » ضمن واقعه المعاشي ، ومن هنا كان الرفض الشامل للمجتمع البورجوازي القائم على التعصب والحواجز الدينية والقومية والطبقية واللونية ، وكان النطق باسم الانسان المسحوق في كل مستوى من مستويات الحياة البورجوازية . وقد استطاع هذا الاتجاه الرافض ان يتخلص نسبياً من كثير من الشوائب العاطفية والخيالية الرومانتيكية ليواجه مصير الانسان ضمن واقعه المعاصر وأحيانا ضمن أفقه المنتظر .

---

* المصدر السابق ، ص ٨٩

ولعل المدرسة الوجودية كانت اكبر معبر عن اشكالية الأدب الحديث وانسانيته . ومن المفيد الوقوف قليلاً عند الآراء الأدبية لأحد مفكريها الكبار جان بول سارتر . الأدب عند سارتر خاصتان اساسيتـــان مرتبطتان الواحدة بالأخرى : الالتزام واتخاذ المواقف . وهو يعفي الشاعر من الالتزام لأن الكلمة عند الشاعر لاتفيد معناها الدقيق وبالتالي لاتتضمن موقفاً ، وعنده ان حرية الكاتب ضرورية ومنها ينبع الالتزام ، والالتزام لايعني سطحية العمل الأدبي ووقوفه عند النصائح المباشرة أو المواعظ بل يعني حيوية العمل الأدبي في ارتباطه بالعصر وملابساته وتوجيه الوعي فيه وجهة انسانية مسؤولة غير مشروطة * .

وفي سنة ١٩٤٦ حدد سارتر مسؤولية الأديب بما يلي :

— يجب صنع نظرية ايجابية في الحرية والتحرير .

— يجب أن يتجه الكاتب في كل حالة من الحالات الى استنكار العنف من وجهة نظر أفراد الطبقات المضطهدة .

— يجب أخيراً تحديد علاقة صحيحة بين الغايات والوسائل (أي العلاقة بين الأخلاق والسياسة ويشدد سارتر على هذه النقطة تشديداً خاصاً) .

— يجب أن يرفض الكاتب فوراً استعمال وسيلة ما من وسائل العنف في تحقيق نظام من الأنظمة او المحافظة عليه .

ويضيف سارتر :

« ان المناداة بالحرية دون أن يكون ذلك في سبيـــل التغيير ، المناداة

(*) للتوسع راجع : جان بول سارتر : الادب الملتزم ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٥ .

بالحرية لمجود أن تتمتع لحظة بذاتها ازاء اثر جميل ، ذلك ما يقال عنه : الفن للفن. هذه الطريقة في المناداة بالحرية المبدعة ضد النفع، ضد تقدم الآلات، ضد الطبقة ، انما هي طريقة في أن يكون المرء ضد البورجوازية ومرتبطاً بالبورجوازية في آن واحد»* .

وعلى الرغم من أن هناك دائماً تعديلات وتغييرات تطرأ على آراء سارتر وزملائه من أصحاب فلسفة الوجود فان الآراء السابقة يمكن أن تعتبر أوضح ما قيل في هذا المجال .

وقد فضل الوجوديون باستمرار القصة والمسرحية لطرح المشكلات الانسانية والميتافيزيقية. ومعظمهم تجنبوا البحث النظري الفلسفي المباشر لأن العلاقة التي تربط الانسان بالعالم هي في صميمها فعل وعاطفة قبل أن تكون فكراً وتصوراً ، والرواية تسمح للفيلسوف بأن « يقف على الانبثاق الأصلي للوجود في حقيقته الكاملة النوعية التاريخية » . ان هذه المزاوجة بين النثر القصصي والفلسفة مزاوجة واعية ومتعمدة وناتجة عن تصور الوجوديين المرن للحقيقة الانسانية ، وكما تقول سيمون دوبوفوار :

« ان لكل تجربة انسانية بعداً سيكلوجياً خاصاً . ولكن على حين نجد أن الباحث النظري يستخلص تلك المعاني محاولاً دائماً ان يكون منها مركباً عقلياً مجرداً، نرى أن الروائي يعبرعنها تعبيراً حياً بأن يضعها في سياقها الفردي الواقعي» .

ومن هنا كانت الشخصيات الوجودية في الرواية موجودات بشرية واعية

(*) من محاضرة له بعنوان « مسؤولية الكاتب » ألقاها في اليونيسكو سنة ١٩٤٦ ، انظر « في الثقافة » عدد خاص من مجلة المعلم العربي ، أيار وحزيران ١٩٥٥ ، ترجمة سامي الدروبي .

تحيا قضايا الانسان المعاصر بكثافة وعمق ونصاعة وجودية ، وهي تفهم ذاتها وتنقد سلوكها وتعلق على تصرفاتها * .

حتى الآن اتخذ الحديث عن الوجودية طابعاً نظرياً ، وتصادف الباحث باستمرار مشكلة ايجاد مثال للنظرية ولا سيما في حالة الآراء الوجودية المتباينة والمعرضة للتغير باستمرار . وربما كانت رواية (الغثيان) لسارتر – على الرغم من أنها كتبت قبل الحرب – مثال الرواية الوجودية لأن كل ما فيها يجسد أفكار سارتر النظرية ولا سيما افكاره الأساسية ، كما أن فيها مزايا معينة في الشكل والصيغة والايجاز تجعلها أشد أعماله الروائية الفلسفية إحكاماً .

الغثيان :

تسرد (الغثيان) مذكرات انطوان روكانتان وهو منهمك في كتابة سيرة مركيز من القرن الثامن عشر . ان انطوان في الثلاثين من عمره وليس لديه التزام ما ، ولكنه غير سعيد ووحيد وتصيبه نوبات من التشنج بالغثيان والدوار والقلق ، وهي ناتجة عن حقيقة ميتافيزيقية لا عن اضطراب نفسي . والوحدة بحد ذاتها ليست مصدر قلقه . انه غريب عن الحقيقة نفسها ، ربما بسبب انسلاخه عن الآخرين الذين بدونهم لايمكن تحديد كينونة المرء . ويزداد شعوره بأن العالم الخارجي لم يعد محتملا ويتوصل الى اكتشافات هامة وتتكون في رأسه كلمة (العبث Absurdity) ، ثم يتوصل الى مفهوم العرضية :

« أقصد ان الانسان لا يستطيع أن يعرف الوجود على انه ضرورة . الوجود هو بكل بساطة (أن تكون هناك) . وتقوده العرضية الى مفهوم الحرية

(*) د . زكريا ابراهيم : « الرواية الوجودية بين الفلسفة والادب » ، الاداب ، ع ٣ ، س ١١ ، آذار ١٩٦٣ .

فاذا كان الكون عرضياً فانه ايضاً حر : « الجميع احرار : هذا المتنزه وهذه المدينة ونفسي » . ولكن الحرية تستتبع المسؤولية فالانسان ليس عبداً للظروف والقدر وبالتالي هو مايصنعه من نفسه . غير ان روكانتان ينتهي اخيراً الى الاكتشاف أنه (لا يوجد سبب للحياة) والعالم لم يمنحه شيئاً يعيش من اجله ، وهو لا يعرف ماذا يفعل بوجوده . ولكن مجرد سمـــاع اغنية ينبهه الى أن اي موجود لا يستطيع اطلاقاً ان يعطي تسويغاً لوجود موجود آخر وأن عليه ان يعطي معنى لحياته فيقرر تأليف كتاب .

تعليق :

ان « الغثيان » تتضمن معظم الآراء الاساسية لسارتر في شكلهـــا الحي المتواصل ، وخلاصة ماتقوله هذه الرواية ان على كل انسان ان يجد سبباً للحياة خاصاً به ، وهي تتضمن هجوماً على الحياة غير الملتزمة ، ولكنها لا تحمّل الالتزام اي محتوى سياسي او اجتماعي بل تظل رواية وجودية بمعنى انها تترك لكل انسان التزامه ، وان كان قرار روكانتان في نهاية الرواية بتأليف كتاب يطرح مسألة الخلاص عن طريق الفن . ولكن هذه المسألة بالذات (الخلاص عن طريق الفن) تكشف عن سراب عند سارتر فيما بعد . ويظهر ذلك في سيرته الذاتية (الكلمات Les Mots) :

« أما الآن فأنا اعرف عجزنا . لا فرق . أنا اصنع كتباً وسأستمر على ذلك . لا بد من الكتب فهي على اي حال نافعة .. ليس للثقافة ان تخلص شيئاً او انساناً او أن تسوّغ بل انها نتاج الانسان ، فهو ينعكس عليها ويتعرف نفسه فيها . انها وحدها المرآة النافذة التي تعكس له صورته » .(*)

(*) ظهرت الترجمة العربية تحت عنوان : سيرتي الذاتية ، ١ – الكلمات ، ترجمة سهيل ادريس ، بيروت ١٩٦٤ .

وفي اعمال سارتر الأخرى (*) مثل « طرق الحرية » ، ١٩٤٥ ، نجد وجهة نظر الضمير الفردي ترتبط أكثر فأكثر بالواقع الاجتماعي ، ولكن هذا التوزيع بين الضمير الفردي والميول اليسارية يترك في موقف المنادي بالحرية الذي يرى في تطرف هذه الجهة أو تلك شططاً ينبغي تجنبه ، ولم يستطع سارتر الانتهاء الى حل جذري للمسائل المعلقة وانما شددت مؤلفاته على نسبية كل عمل انساني وتجدده الدائم دون تقدم يذكر وذلك بسبب جاذبية الحتميات الاقتصادية والاجتماعية « الأيدي القذرة ١٩٤٨ » . وقد استغرقت منه مقاومة الحرب طاقة كبرى وجعلته اقل الحاحاً على بلورة مذهب اخلاقي متكامل او اتجاه ادبي مستمر. وهكذا تستمر الاشكالية في مؤلفاته الأدبية. ولكن حدة ثورته تنتهي الى نوع من الخيبة وخمود الثورة نستشفه في « الكلمات » وكذلك في مواقف الكاتب المعاصرة(**). وان هذه الخيبة لتتضح بشكل اقوى عند رفيقة حياته سيمون دوبوفوار وتتسع لتكون خيبة ادبية عاطفية سياسية شخصية كما يتضح في كتابها « قوة الاشياء » . وكذلك كانت الخيبة نهاية الكاتب الوجودي المبدع ألبير كامي الذي كان تأثيره عظيماً بعد الحرب وحاول ان يلقن الناس علماً اخلاقياً جديداً مفاده أن العالم والحياة البشرية مُحالان « الغريب ، اسطورة سيزيف ١٩٤٢ » وانما يمكننا الاعتقاد بعدد ضئيل من القيم كالوضوح والصدق اللذين يجعلان هذه الحياة الهشة ممكنة ومقبولة « الطاعون ١٩٤٧ » ، وعلى اي حال المطلوب هو

(*) من اجل فهم المضمون الفكري لأدب سارتر راجع :

كرانستون ، موريس : سارتر بين الفلسفة والادب . ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، بيروت . لاتاريخ .

(**) ولا سيما موقفه المستهجن الرافض لرؤية الظلم الرهيب الذي اوقعه الصهيونيون بالشعب العربي الفلسطيني .

الاستجابة للحياة ومجابهتها وجهاً لوجه « بعين النسر التي لا تراوغ » وعندها « يقف الانسان على عتبة الحياة ويرى نفسه مثقلا بمصير لا يتحكم به البتة ، وان كانت له القدرة على رفض هذا المصير والثورة على الظلم والزيف ». ولكن (كامي) اكتشف بالتدريج خلو العالم من اي عزاء وتفتت القيم واختلاف معاني المفردات التي تدل على القيم بعد انقسام العالم ايديولوجياً واخلاقياً وسياسياً الى معسكرين كبيرين . وهكذا عدل عن مقاومة فساد العالم وباتت رسالته سلبية تماماً : ليس للانسان بعد ذلك سوى رفضه للوضع الراهن (« الانسان الثائر » ، ١٩٥١) وليس بوسعه سوى المجاهرة بثورته مادام كل شيء مشوباً بالفساد . (*)

٥ ـ الاغتراب الروحي :

يشعر قارىء الأدب الحديث باستمرار أن هناك علاقة جوهرية مفقودة بين الأديب وبين العالم، وان الأمر يتجاوز مسألة رفض العالم ومؤسساته الى شيء آخر أعمق هو الشعور بالاغتراب الروحي Alienation ، الشعور ذو الطابع المرضي السقيم بأن حياة الفنان لا تنسجم مع طبيعة الحياة القائمة في عصره ، وانه مجرد فرد واحد من بين عديدين قضي عليهم ان يجتمعوا في هذا الوجود الواسع دون ان يكون بينهم شيء حقيقي مشترك أو صلة ذات معنى بالنسبة لكل منهم . وهذه الجفوة الروحية بين الأديب والعصر ليست ظاهرة جديدة في الادب والفن، فما أكثر الادباء والشعراء والفنانين الذين لم تنشأ بينهم وبين عصرهم صلة تفاهم مشترك . ولكن الجديد في الامر ان هذه الظاهرة لم تعد حالة خاصة فريدة ،بل أصبحت ظاهرة مشتركة وتجربة عامة لدى أدباء العصر ، أصبحت علامـــة من

(*) كروزيه : العهد المعاصر ، ص ٤٩٩ — ٥٠٠ .

علامات « المعاصرة » في الادب الحديث . والكتاب البارزون في عصرنا هم اولئك الذين يدركون هذه الحقيقة. واذ يكتبون عن (ضياعهم) الخاص يعممون تجربتهم الفردية ويعمقونها ويكسبونها نوعاً من الشمولية بحيث تأخذ طابع نقد جذري وأساسي للتاريخ المعاصر يحقق بشكل أو بآخر المفهوم الذي بشّر به الناقد الانكليزي ماثيو أرنولد ، وهو : « الادب نقد الحياة » .

وهكذا يجب التفريق بوضوح بين الادب الذي لا يتجاوز نطاق التجربة الخام السقيمة المتعلقة بالشعور بالجفوة والضياع ، والتي تجد تنفيساً عنها في اللجوء الى المخدرات والعقاقير والجنس وتمجيد الجريمة والانحلال، وبين الادب الذي (يُقطّر) التجربة لتتخذ شكل موقف من الحياة ونقد لها او ـ على الاقل ـ عملية اكتشاف لما هو وراء الواقع اليومي أو لصلة الفنان بالقانون الذي ينتظم ذرات هذا الواقع وتفصيلاته .

ومعظم ادباء (الاغتراب) وجوديون بالمعنى الأعم لهذه الكلمة ، لأنهم يهتمون بالوجود الفعلي الملموس بجميع عناصره العرضية وبما يتضمنه من حرية ومسؤولية ، ولأنهم أيضاً إشكاليون بالدرجة الاولى يشعرون أن علاقتهم الاساسية بالحياة مبتورة ، وانهم يعيشون منفردين ضمن عالم صاخب فسيح الارجاء وليس امامهم سوى ان يصارعوا وجودهم الشخصي الملغز في محاولة للتوصل الى « العلاقة الاساسية » .(*)

على ان نتيجة هذا الصراع غالباً ما تنتهي الى التشاؤم والشعور باليأس

(*) من أجل التوسع انظر : Scott, Nathan : Rehearsals of Discomposure : Alienation and Reconciliation in Modern Literature , London , 1952 , pp 10 - 12 .

والتمزق. وقد تصل الى حد الشعور بأن الحياة ليست الاموتاً بالنسبة لجموع البشر. واذ ذاك ينغمس الفنان في عملية ندب مأساوي لمظاهر الحياة انطلاقاً من الافتقار الى أية نظرة اخلاقية مقنعة والعجز عن الالتزام بأي موقف ذي معنى ازاء الخير والشر، والاستسلام لنوع من الانفعال الآلي تجاه العالم. وفي شعرت. س إليوت مواقف مستمرة من هذا النوع، ولاسيما حين يتعرض لمظاهر الحياة المعاصرة. وفي قصيدته (الارض اليباب) نعي شامل للمدينة الحديثة :

مدينة زائفة .
تحت الضباب القاتم .... لفجر يوم شتاء
جمهور يتدفق فوق جسر لندن ، جمهور غفير
لم أكن أظن أن الموت قد طوى كل هذه الجموع (*)

وها هو شاعر آخر مع تجربة الشعور المخيم بالموت :

أرى قدمي كحجرين في قاع الماء
والسمكة المنطلقية الصغيرة
تلاحق لحمي وتنهشه
متصورة انني واحدة من الموتى (**)

ان هذا الشعور بالموت والانفصام عن الحياة ظاهرة عامة عند ادباء الغرب المعاصرين. وليس يكفي في تفسيرها ان نقول مع روزنتال اننا «بخضوعنا للتنظيمات والهيئات والآلات خضوعاً لهذه الاشياء في حد ذاتها نجد انفسنا في خطر فقدان

(*) روزنتال م.ل: شعراء المدرسة الحديثة ، ترجمة جميل الحسيني ، مراجعة د. موسى الخوري ، فرانكلين (بيروت — نيويورك) ١٩٦٣ ، ص ١٦ .

(**) مجموعة (أكل الزمن Time Eating) للشاعر الانكليزي دوغلاس كيث الذي توفي في الحرب سنة ١٩٤١ .

الصلة بينابيع البهجة والحيوية » (*). ففي ذلك اغضاء عن السبب الاساسي والأهم، وهو أن قيم الحضارة الرأسمالية تواجه مرحلة الشعور بالانتهاء والانهيار ، والآلات والهيئات والتنظيمات لا تكون ضد الانسان الموهوب الا في نظام اجتماعي فقد اخلاقيته ومسوّغ استمراره بالنسبة لأغلبية الناس . ومن هنا كانت صيحة كولن ولسون في (سقوط الحضارة) مثلاً، أو شعور الاديب الانكليزي سيريل كونولي باليأس المطلق من الحياة الغربية :

« لقد اشرف الوقت على الانتهاء في حدائق الغرب ، ومن الآن فصاعداً سوف يحكم على الفنان فقط من خلال جرس وحدته ونوعية يأسه » .

الا أن الجفوة بين الفنان وبين العالم المعاصر ليست الوجه الوحيد (للاغتراب) الذي يعاني منه الادباء المحدثون، وان كانت الموضوع الأكثر شيوعاً. وهناك نوعان آخران من الاغتراب ولـدا أعمق وأقسى انتاج عرفه الادب منذ أقدم العصور ، وأولهما النفي الكوني أي العزلة المطلقة عن كل ما هو قائم في هـذا الكون ، مما يدفع الفنان الى تخطي مشكلة الانسان في مواجهة المجتمع ويضعه في مواجهة نفسه ومواجهة المجهول . وربما كان الكاتب النمساوي فرانز كافكا في (المحاكمة) و « القضية » وقصصه الاخرى أقوى مثال لهذا الاتجاه الذي يشمل سارتر ووليم فوكنر مثلا . والاتجاه الثاني هو ما يمكن ان نسميه «الانقطاع البنيوي عن الناس » ، وهو ناتج عن الشعور بعدم امكان التمازج أو التفاهم الروحي مع أي فرد آخر في هذا العالم . وهو شعور قديم في الادب ظهر عند الابتداعيين والرمزيين « مالارميه » ولكنه أخذ شكلاً حاداً في هذا العصر . ومن ممثليه الانكليزي د. هـ. لورنس ، والفرنسي مارسيل بروست ، والالماني ريلكيه .

(*) روزنتال : شعراء المدرسة الحديثة ، ص ٢١٠ — ٢٢٠ .

ويجب أن نضيف هنا ان « الاغتراب » كان عاملا اساسياً في احياء الحس التاريخي لدى ادباء العصر الحديث ، بحيث اصبح السعي للعودة الى التاريخ والاتصال الحيوي بما اثر عن الماضي من اساطير علامة مميزة للأدب المعاصر . ويتخذ هذا الحس التاريخي ، كما يتضح عند ت.س اليوت أعظم ممثل للاتجاه الاغترابي في هذا العصر ، شكلا انسانيا شاملا ، بمعنى انه يحاول التعمق في البعد التاريخي لتجربة الانسانية ككل . وهو ييسر نوعاً من الهروب الفكري والوجداني للفنان كما انه يمده بنوع من القوة الاخلاقية ويؤمن له — ربما بغير وعي كامل — شكلا من اشكال اعادة الاتصال بالانتماء الانساني . وفي حالة ت.س. إليوت بالذات كان الخلاص فيما يبدو ، عن طريق الدين والتاريخ والاسطورة .

ما اكثر ما يمكن ان يقال في ادب الغربة ، وان ما سبق ليس إلا تبسيطاً شديداً لا يهدف الى ابعد من التعريف العام بهذا اللون من الادب . غير ان الصورة لا تكتمل إلا إذا تذكر المرء ان كتاب الواقعية الاشتراكية يدينون هذا الادب بدون هوادة ويعتبرونه مظهراً من مظاهر الانحطاط الشامل للمجتمع الرأسمالي . وحتى حين يرون فيه نوعاً من النقد او الاحتجاج او الثورة فإن سلبيته وذاتيته وهروبيته وغموضه تضعه دائماً موضع شك عندهم ، ولا سيما حين يطبقون عليه مقاييس ايديولوجية ، كما فعل جورج لوكاش الذي ادان معظم اتجاهات المدرسة الحديثة في الادب « المودرنيزم » ، بما في ذلك التعبيرية والسريالية والطليعية وادب جيمس جويس وإليوت ، باعتبار ان ادب المدرسة الحديثة يعني(*) « انتفاء الفن » و « هزال الواقع » و « انحلال الشخصية » و « تفتيت الانسان الى خبرات جزئية لا يربط بينها رابط » ، و « واذ ذاك يصبح غير قابل للتفسير سواء عند نفسه او عند الآخرين » .

(*) Scott , N. , Rehearsals of Discomposure, P 2 - 3 .

ويعترض لوكاتش بشدة على المبدأ الذي تقوم عليه معظم مدارس الأدب الحديثة وهو نفي الواقع الخارجي ، ويعتبره سبباً اساسياً فيا يؤول اليه انتاجها الفني من تخبط ، وان كان يعترف بوجود تفاوت في مدى تشديد كل من هذه المدارس على تجاهل الواقع الملموس .(*)

* * *

وخلاصة القول إن الخصائص التي سبق ذكرها وهي النسبية ، والرفض والصدق ، والاهتمام باللاشعور وبالانسان الداخلي ، والاشكالية والتركيز على المصير الانساني ، والاغتراب الروحي ، ليست سوى عنوانات كبيرة تشير الى اتجاهات معقدة جداً وخصبة ومنوعة. وقد اخترنامن كل اتجاه ظاهرة ادبية معينة تمثل ابرز مافيه . على انه من الضروري التنبيه الى ان هذه الظواهر الادبية كالوجودية والسيريالية تمثل فيها معظم خصائص الادب الحديث بنسب متفاوتة طبعاً . وفي حالة الكتاب الوجوديين بالذات نجد التعبير عن الروح الجديدة في الادب المعاصر قوياً وشاملا ، ربما لأن الوجودية كان لها في العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الثانية تأثير طاغ على جيل مابعد الحرب نتيجة تجاوبها مع قضايا هذا الجيل النفسية والفكرية .

ومن الملاحظ في العرض السابق ان الخوض في بعض مسائل الشكل اتى من خلال البحث في الاتجاهات العامة ذات الطابع الفكري .ذلك انه في ادب هذا العصر بالذات يصعب الكلام عن شكل مستقل عن المضمون، لان الشكل لم تعد له قيم جمالية خاصة به كما كان الامر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، واصبحت اللغة والصورة معاً ذات قيمة وظيفية مباشرة،اذ ليس من مجال فني مستقل عن مفهوم التعبير .

(*) Lukacs, The Meaning of Contemporary Realism, P 25 - 26.

وقد ادى هذا الاتجاه طبعاً الى تضاؤل الفوارق المصطنعة بين الفنون الادبية تضاؤلاً شديداً ربما يدعو في المستقبل الى تغيير مفهوم الفنون الادبية . وكثيراً ما نقرأ اليوم قصصاً قصيرة فيها من توتر الشعر وتركيزه وكثافة تجربته وغناه بالصور اكثر بكثير من القصائد التي تسمى شعراً لمجرد اتخاذها قالباً معيناً . ولا يقتصر الأمر على القصة القصيرة،فالرواية الحديثة معبأة بطاقات شعرية صارخة . وإن رواية (يوليسيز) لجيمس جويس لم تكن سوى بداءة لهذا الاتجاه الشعري في الرواية. فهي اقرب الى ملحمة شعرية،لا من حيث جوها السابح ونسجها على منوال (الاوديسة) فحسب،بل كذلك من ناحية اهتمامها بالايقاع الموسيقي الملائم للحركة النفسية لأبطالها،وبالطاقة الايحائية لالفاظها وعباراتها. ثم إن روايات كتاب مثل آلن روب غريبه وناتالي ساروت وميشيل بوتور يصعب تصنيفها تحت أي شكل أدبي معيّن ولو أنها تدعى روايات . وبالمقابل أدى اهتمام الشعر الحديث بالتاريخ والاسطورة والماضي الانساني بوجه عام الى مزيد من تبني الشكل القصصي. ومعظم قصائد ت.س اليوت مثلا تتجه اتجاهاً قصصياً،وفيها دائماً حوادث جزئية من الذاكرة او من التاريخ أو من الاسطورة معروضة بشكل قصصي ومسيرة بهدف استكمال الانطباع العام المنشود من القصيدة . ثم ان مانلاحظه من عري المسرح المعاصر واتجاهه الى التجريد المطلق والتخلي عن الزينة الشكلية وعن العمل المسرحي لصالح واقعية نفسية داخلية (مسرح صموئيل بيكيت مثلا) انما هو دليل آخر على الروح المشتركة التي تسيطر اليوم على ميدان الفنون الادبية وتلغي ما بينهما من فوارق شكلية.

تولستوي والثقافة العربية

للكاتب السوفييتي : الكسندر شيفمان

ترجمة : ظافر عبد الواحد

ينبغي في هذه الايام ، التي تتوطد فيها العلاقات الثقافية بين الشعوب السوفييتية والعربية ، التحدث عن كثير من الشخصيات الروسية ذائعة الصيت التي أرست اسس هذه العلاقات . ويأتي الكاتب العبقري الروسي ليو تولستوي في المقام الاول .

كانت الصداقة مع العالم العربي والاهتمام العميق بحضارته القديمة ، من مميزات عدد كبير من الكتاب والعلماء الروس . كانت الأنغام الشرقية والعربية تتردد في شعر بوشكين وليرمنتوف وغيرهما من الشعراء الروس . وأخذ هرتزن وبلينسكي وتشرنشيفسكي وغيرهم من مشاهير الكتاب الروس بالدفاع عن شعوب

الشرق المستضعفة. وتابع ليو تولستوي هذا التقليد التقدمي القديم وأغناه ، وكان أول من اتصل بشخصيات العالم العربي مباشرة واقــام جسراً بين الحضارتين الروسية والعربية.

كان ليو تولستوي يغذي احترام الثقافة العربية القديمة العميق . ودرس باهتمام شديد أدب العرب ومأثوراتهم الشعبية . وترجم خير آثارهم الى اللغة الروسية ودعى لها في روسية .

أولع تولستوي بالقصص العربية، منذ نعومة أظافره. وعندما أصبح كاتباً معروفاً في العالم ، أعاد قراءتها اكثر من مرة ، وكثيراً ما اقتبسها ليكتبها لأطفال الفلاحين الروس . وهكذا كان الامر من حكايات (علي بابا والاربعين حرامي) و (تاجر بغداد علي خجــا) و (الدرويش والغراب الصغير) و (عبد الله الوزير) و (الاخوين) و (الملك والقميص) التي ضمنها في مؤلفه الشهير (كتب المطالعة). ونشر تولستوي بضع حكايات عربية في ملحق مجلته التربوية (ياسنايا بوليانا) .

حافظ تولستوي ، في اقتباس المأثورات الشعبية العربية ، على مافيها من مغزى وشعر ولون عربي ، ولكنه عندما نقل أثرها إلى القرى الروسية أعطى شخصياتها أسماء روسية وأنطقها بلغة روسية بسيطة واضحة . وهذا ماجعل الآثار مستساغة للصغار والكبار على حد سواء . ومن المعروف في العالم أن نقل تولستوي للقصص العربية من أغنى المقتبسات بالحياة والشعر وأقربها الى أصالة الأدب العالمي .

ودويت المأثورات الشعبية العربية في روايات تولستوي أيضاً . وهكذا

يروي بوزدنيشيف بطل قصة «سوناتا كرويتسر(١)» (حكاية الملك شهريار وإخوته) من (حكايا الف ليلة وليلة) عندما تحدث عن الآلام التي يكابدها من الغيرة. وضمن تولستوي دراسته عن (العبودية في عصرنا) بمجموعة أخرى من الحكايا مأخوذة من الرحلة الخامسة للسندباد البحري. ونضح تولستوي من الينابيع العربية ليكتب قصته الشهيرة (الملك الآشوري السرخدون) ومؤلفاته الأخرى الموجهة الى الناس البسطاء في روسية.

وكان تولستوي يتحمس لجني الأمثال والأقوال المأثورة والحكم العربية، ويترجمها ويدسها بين باقات زهر الحكمة الشعبية.

وذكر تولستوي في الكتب التي نشرها – (مطالعات) و (أفكار الرجال الحكماء) و (طريق الحياة) الخ ... – عشرات من الحكم والأمثال المستقاة من حياة العرب وحكمتهم التي تعود الى ماقبل ألف عام من الزمان. وتشبث تولستوي بدور هذه التجربة العربية، وحرص على الحفاظ على حرارتها وعمق تفكيرها وقيمة حكمتها في الترجمة الروسية.

درس تولستوي أيضاً التاريخ القديم للشرق العربي. وما تزال مكتبته تضم حتى اليوم بحوثاً تاريخية مليئة بالملاحظات، ومرفقة ببطاقات تدل على الدراسة العميقة التي حظيت بها. وتضم المكتبة أيضاً مطبوعات نادرة من الأدب والمأثورات الشعبية العربية؛ وطبعات من (ألف ليلة وليلة) باللغة الروسية واللغات الأجنبية.

---

(١) رودولف كرويتسر مؤلف موسيقي وعازف كمان ولد في فرساي (١٧٦٦ – ١٨٤١) – المترجم –

اهتم تولستوي كثيراً بالفن العربي القديم . فلم يكن يكتفي بمطالعة الكتب ، بل يلح في سؤال الذين زاروا الشرق عن أهرام مصر ، وعن التصوير والعمارة عند العرب القدامى . ووجد ليو لفوفيتش في أسوان سنة ١٩٠٤ يرسم الآثار العمرانية لمصر القديمة ، بناء على طلب أبيه تولستوي . وكان يكتب له أن تلك المعابد والقبور التي تعود الى ٥ – ٦ آلاف سنة من الزمان مدهشة ، بآلهتها ومومياواتها والعمل الجبار الذي اقتضته . وأن المرء عندما يتأمل كل ذلك تحت الشمس المدارية ، لأياً مايصدق أنه من صنع كائنات بشرية . وكان ليو تولستوي يقرأ رسائل ابنه باهتمام كبير ويطلب منه التعمق في دراسة حياة العرب وعاداتهم وفنهم .

وكان تولستوي يهتم كذلك بآثار المفكرين العرب القدامى ولا سيما آثار الحريري – العالم والأديب ذائع الصيت – الذي ضمن مقاماته في مختاراته (أفكار الناس الحكماء للاستعمال اليومي) ١٩٠٣ .

وما أن علم قراء تولستوي العرب باهتمامه بالثقافة العربية ، حتى بعث إليه العديد منهم بالكتب والمجلات والصحف التي كان يعب منها معلومات هامة . واستأذنه الكتاب والمترجمون والناشرون – بدورهم – في ترجمة ونشر آثاره في البلاد العربية . ويأذن تولستوي لهم بذلك بطيبة خاطر دون المطالبة بحقوق المؤلف .

كان تلاميذ حلقتي نظاريت وبيت جالا التربويتين – التين افتتحهما المجمع العلمي الروسي سنة ١٨٨٠ – أول دعاة الأدب الروسي – ولاسيا آثار تولستوي – في البلاد العربية . وكونت هاتان الحلقتان العديد من الشخصيات الثقافية التي كرست

نفسها لنشاط نبيل ، لتوطيد الصداقة بين روسية والبلاد العربية .

كان من أوائل مترجمي تولستوي ومن أشد الموهوبين في مصر سليم قبعين فلسطيني المولد ، خريج حلقة نظاريت . وقد أصبح فيما بعد صحفياً وناشراً هاماً. وأصدر في القاهرة سنة ١٩٠١ - نظراً لمعرفته التامة باللغة والأدب الروسيين وإعجابه الكبير بتولستوي - كتاب (تعليم الحساب عند تولستوي) تحدث فيه عن الابداع الفني للكاتب الروسي . وترجم سليم قبعين - فيما بعد الى اللغة العربية (سوناتا كرزويتسر) ١٩٠٤ ، وقصة (انهيار الجحيم وترميمه) ١٩٠٩ ، ومسرحية (قوة الظلمات) ١٩١٠ ، وعدداً كبيراً من آثار الكاتب الروسي .

وانصرف خليل بيدس في فلسطين - ربيب حلقة نظاريت - الى ترجمة الآثار الكلاسيكية الروسية . فترجم « ابنة الضابط » لبوشكين ، و « تاراس بولبا » لغوغول ، وكثيراً من قصص تولستوي .

كان بيدس مولعاً بحب الأدب الروسي . وكان يقول إن اللغة الروسية لم تكن غالية على قلبه وحسب . فما أن تعلم كتابتها ، منذ بدأ يفهم كلمة من ثلاث ، حتى غاص في الكتب الروسية التي كانت المكتبة تضم كمية ضخمة منها . « كان كل كتاب من الكتب التي أقرؤها يساهم في قشع الضباب الذي يحجب الروسية ، التي لم تكن غير لغة أصبحت بلاداً ثم فكرة فعالاً قائماً بذاته ، ثم العالم الوحيد الذي أشعر فيه بأنني قادر على الحياة والتنفس » .

قدر العرب ترجمة الآثار الكلاسيكية الروسية ، التي نشرها بيدس ، أيما تقدير . وتزايد طلبها في بلاد الشرق العربي ، وفي الأمريكتين حيث كان

يعيش زهاء خمسمئة ألف عربي . وأصدر بيدس ، لتلبية الطلب من ١٩٠٨ — ١٩١٤ مجلة « النفائس » الشهرية التي كانت تنشر بانتظام ترجمة لآثار المؤلفين الروس .

يقول خليل بيدس : « ترجمت عدداً كبيراً من قصص تولستوي ، منذ البداية . فأنا مقتنع بأن ليوتولستوي هو أكثر كاتب روسي فهمه العرب لأنه غالباً ما يعبر عن أفكاره بالتشبيه ، مما درج عليه العرب » .

انصرف بيدس أثنـــاء الحرب العالمية الثانية ـ في آخر حياته ـ لترجمة « حرب وسلام » . وقال : « ستكرس السنوات المتبقية من حياتي لأثرين عظيمي الأهمية . مما ترجمة (حرب وسلام) لتولستوي و (الجريمة والعقاب) لديستويفسكي . فبدون هاتين الترجمتين ، يظل عملي في الحياة ناقصاً . » وعلى أية حال ، فقد منعه الموت من تنفيذ هذه الخطة الجبارة .

ترجم أنطون ليان ـ المربي والناشر العربي الذي درس في روسية ـ آثار تولستوي في بداية القرن في سورية . إذ نشر في فترة قصيرة من الزمن سبعاً من قصص تولستوي في جريدة « حمص » التي كان يصدرها ، وفي مطبوعات عربية أخرى . وضمت سنة ١٩١٣ في كتاب كان يضم كذلك ترجمات لتشيخوف ولسكوف و كتاب آخرين . وكان ليان ينشر في الصحف السورية مقتطفات من مقالات تولستوي ، و كذلك جرداً سريعاً للنشاط الاجتماعي للكاتب ..

بالاضافة الى الآثار المذكورة سابقاً ، نشرت سنة ١٩٠٨ رواية « البعث » ، ترجمة الكاتب رشيد حداد ، وقصة « سجين القفقاس » في جريدة « المراقب » اللبنانية .

وهكذا استطاع القارىء العربي الاطلاع على آثار تولستوي ومفاهيمه .

أواصر الصداقة التي تربط تولستوي بالعرب ، والنشاط الذي بذله الكاتب لتعريف روسية بالثقافة العربية ، وتدخله الشديد للدفاع عن حرية العرب واستقلالهم ، جزء من أهم صفحات تاريخ العلاقات الثقافية بين الروس العرب .

مصادر الفكر العربي

في الاقتصاد العراقي (1)

عرض وتحليل : جورج جبّور

ينتسب الكتاب الذي نستعرضه اليوم الى صنف الكتب البيبلوغرافية ، وهو صنف تفتقر اليه المكتبة العربية الحديثة ، ويرتبط هذا الافتقار ، سبباً ونتيجة ، بالافتقار الى البحث العربي العلمي الجدي . فالكتب والقوائم البيبلوغرافية هي مناجم يخلق البحث باستكشافها ، وهي من جهة ثانية لايمكن « بناؤها » إلا بنتيجة بحث .

وتخبرنا مقدمة الكتاب انه « محاولة اولية لحصر مصادر الفكر العربي في

(1) د . خير الدين حسيب — مصادر الفكر العربي في الاقتصاد العراقي — دار الطليعة — بيروت ١٩٧١ .

الاقتصاد في العراق خلال مائة سنة من ١٨٦٣ الى ١٩٦٣ » . وهو يشتمل على « ما كتبه ونشره العرب في العراق أو عن العراق في مجال العلوم الاقتصادية ، باللغة العربية او بلغة اجنبية، سواء كانت على شكل كتاب او اطروحة (رسالة) أو مقالة » . أما سبب اقتصار التغطية على الفترة الممتدة الى عام ١٩٦٣ فذلك يعود ، كما تقول مقدمة المؤلف « لاعتبارات علمية فرضتها طبيعة الامكانيات المتوفرة عند اعداد البحث » وحبذا لو ان المؤلف احاطنا بتلك الاعتبارات التي « فرضتها طبيعة الامكانيات » ، وهي كما نظن تتعلق بالمكان (المكتبة مركز الابحاث) الذي اعدت فيه المحاولة ، وما يشتمل عليه ذلك المكان من امكانيات .

هذا ويتألف الكتاب من ثلاثة فصول اولها يبحث في نتائج دراسة الفكر العربي في الاقتصاد في العراق ، بينما يشتمل الثاني على قوائم لما نشر باللغات الاجنبية ، والثالث على ما نشر بالعربية .

الفصل الاول بعنوان « نتائج الدراسة » (ص ٧ — ٣٦) ، يشير أولاً الى حدود البحث ، حيث يوضح المؤلف ان المصادر المصنفة تشمل ما كتبه عرب العراق عن العراق أو غيره ، وتشمل ما كتبه العرب من غير العراقيين عن العراق . كذلك يشير المؤلف الى انه لم يذكر التقارير والنشرات الحكومية غير معروفة المؤلف ، ولم يذكر ايضاً التشريعات الاقتصادية ، ولا المقالات التي ظهرت في الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية بسبب صعوبة حصرها . يخبرنا المؤلف أيضاً انه لم يقم بعملية تقويم لما وقع عليه من دراسات فبقيت الدراسات المصنفة دون اي تعريف بأهميتها ، أشبه بمعجم لما امكن العثور عليه من دراسات .

أما العملية التقويمية لتطور الفكر الاقتصادي في العراق فقد قام بها المؤلف في مقالين بيبلوغرافيين Bibliographical essays الأول تاريخي ، والثاني حسب المواضيع الرئيسية للاقتصاد .

في الاستعراض التاريخي للموضوع (ص ١٣ – ٢٤) يرى الدكتور حسيب أن الفكر الاقتصادي قد مرّ بفترات ثلاث . الأولى من عام ١٨٦٣ تاريخ بداية البحث وحتى عام ١٩٢٠ ، تاريخ ظهور الكيان العراقي بشكله الراهن . وطابع هذه الفترة قلة الدراسات الاقتصادية التي لاتتعدى « بضع مقالات منشورة في مجلة « لغة العرب » في فترة متأخرة ما بين ١٩١٣ – ١٩١٤ . أما الفترة الثانية من ١٩٢٠ وحتى ١٩٤٥ فقد شهدت تطورات سياسية واقتصادية هامة ، عراقياً وعالمياً ، وترافقت تلك التطورات بنشاط في العلوم الاقتصادية حيث بدىء بتدريس الاقتصاد في كلية الحقوق وارسلت بعثات الى جامعات خارج القطر . مع ذلك لم يكن الانتاج الفكري الاقتصادي كبيراً في بداية تلك الفترة ، اما في اواخرها فقد ظهر كتاب سعيد حمادة عن النظام الاقتصادي في العراق (١٩٣٨) كما قدمت بعض الرسائل الجامعية في لندن وبيروت حول بعض نواحي خاصة من اقتصاديات العراق كمشكلة الأرض ، او النظام المالي العراقي . كذلك شهد عام ١٩٣٧ ظهور مجلة غرفة تجارة بغداد كمجلة اقتصادية متخصصة .

الفترة الثالثة الممتدة من ١٩٤٥ وحتى ١٩٦٣ تميزت بانتاج فكري غزير نسبياً ، كما شهدت انشاء اول كلية لتدريس الاقتصاد كعلم مستقل في عام ١٩٤٧ ، وشهدت كذلك تأسيس جمعية للاقتصاديين العراقيين عام ١٩٥٧ أخذت تصدر مجلة باسم الاقتصادي . ميزة كثير من انتاج هذه الفترة ، انه كتب بالانجليزية كرسائل جامعية لجامعات خارج العراق ، وقد انصبت معظم هذه الرسائل على

دراسة نواحي تطبيقية من النظام الاقتصادي العراقي ما عدا رسالة واحدة نظرية هي رسالة محمود الحمصي حول التخطيط الاقتصادي . اما ما كتب بالعربية خلال هذه الفترة فكان كثيراً أيضاً ، قام بكتابته اساتذة الاقتصاد ولغرض التدريس . « مستوى هـذا الانتاج بشكل عام مع الاستثناءات كان أدنى من مستوى الاطروحات باللغات الاجنبيـة » (ص ٢٣) . وظهرت عام ١٩٦٠ مجلة الصناعي .

المقال البيبليوغرافي الثاني (ص ٢٤ – ٣٦) يقوّم الدراسات بحسب الحقول الاقتصادية المختلفة . وفي هـذا المجال يستعرض الدكتور حسيب أهم الدراسات التي ظهرت في النظرية الاقتصادية ، والتاريخ الاقتصادي ، والتركيب الاقتصادي ، والسكان والقوة العاملة ، ومشاكل الارض والزراعـة ، والنفط والصناعة ، والنقل والمواصلات ، والتجارة، والتمويل ، والنقد والبنوك ، والمالية العامة ، والدراسات الاقتصادية المقارنة للعراق ودول اخرى . ويلاحظ المؤلف بالنسبة لهذا الموضوع الاخير قلة اهتمام الاقتصاديين العراقيين بانتاج دراسات عن خارج العراق كما يلاحظ قلة اهتمام الاقتصاديين العرب من غير العراقيين بدراسة اقتصاديات العراق (ص ٣٤) ويبدو من ص ٣٦ ان الاهتمام بدراسة اقتصاديات العراق في تلك الفترة قد اقتصر على دارسين لبنانيين أو فلسطينيين مقيمين بلبنان .

* * *

الفصل الثاني من الكتاب (ص ٣٧ – ٥٠) يضم ما ساهم به المؤلفون العرب في العراق او عنه خلال مائة سنة باللغة الأجنبية بترتيب أبجدي للمؤلفين .

قسم هـذا الفصل الى جزء اول عن الكتب والنشرات الاجنبية ، ولا يضم هذا الجزء الا عشرة كتب او نشرات .

اما الجزء الثاني فيضم الاطروحات بالانكليزية ويبلغ عددها حوالي /٧٠/ اطروحة ، وبالفرنسية وعددها حوالي ١٥ .

ويضم الجزء الثالث المقالات التي ظهرت في مجلات أجنبية (مجلات انكليزية اللغة غالباً ، وليست عموماً ذات مستوى اكاديمي عالٍ) ولا يزيد عددها عن ٢٧ مقالاً ، كتبها اقتصاديون عراقيون وغيرهم من العرب ، ويبدو ان اكثر من نصفها قصير لا يتجاوز عشر صفحات .

* * *

الفصل الثالث والاخير من الكتاب (ص ٥١ - ١١٩) يضم ما ساهم به المؤلفون العرب في العراق او عنه باللغة العربية ، بترتيب أبجدي للمؤلفين . ويقسم هذا الفصل الى جزئين الاول خاص بالكتب ويبلغ عددها حوالي ١٢٥ كتاباً ، بينما يضم الجزء الثاني المقالات التي ظهرت بالعربية (بدء من ص ٧٠) وعددها حوالي ٣٥٠ مقالاً .

* * *

هذا كتاب قيم بموضوعه ، قيم بالمعلومات البيبليوغرافية التي يقدمها ويمكن القول انه ضروري لكل من يود ان يدرس اقتصاد العراق ، كمرجع لمراجع ، اما المقالان البيبلوغرافيان فلا شك ايضاً انهما مفيدان في اعطائنا فكرة عن تطور الكتابة في علم الاقتصاد ، في العراق وعنه .

ولكن لنا على الكتاب ملاحظات بعضها مآخذ أشار المؤلف الى عدد منها .

اننا نوافق المؤلف على صعوبة البحث ودقته وانه لا يمكن ان يقوم به

باحث واحد، بل يتطلب تعاوناً مع عدة باحثين،وفي الحق من عدة هيئات عربية . ولكن الكتاب مع ذلك يشكو من نقص في الدقة كان بإمكان المؤلف - في تقديرنا - ان يتحاشى بعضه . عنوانا الفصلين الثاني والثالث يبتدىء بـ : « ما ساهم به المؤلفون العرب في العراق ... » ، والحق ان الدقة كانت تقتضي ان يقال : « ما ساهم به المؤلفون العرب في العراق وعنه ... » ، كما درج الدكتور حسيب على القول في المقدمة والفصل الاول . كذلك قسم المؤلف الفصل الثاني (باللغة الاجنبية) الى ثلاثـــة اجزاء هي الكتب والاطروحات والمقالات ، بينما قسم الفصل الثالث (بالعربية) الى جزئين فقط هما الكتب والمقالات . أليس ثمة اطروحات بالعربية عن العراق لم تنشر في كتب ؟ . وأخيراً يبدو نقص الدقة في ان بعض المساهمات التي أشار اليها المؤلف في مقاليه البيبلوغرافيين واصفاً اياها بالأهمية ، لم تظهر في الجداول ، مثل كتاب فهيم قبعين عن اعمار العراق ١٩٥٠ - ١٩٥٧ الذي أشير اليه في ص ٢٧ - ٢٨ ولكنه اغفل في الجدول ومكانه هو في ص ٣٨ . وربما كان ثمة امثلة اخرى لمثل هذا النقص في الدقة .

وثمة بعد هذا مآخذ طباعية . ان طباعةالبيبليوغرافيات فن دقيق له أصوله وقواعده في اللغات الاجنبية ، كاستعمال الحروف المائلة الـ Italics لتمييز اسم الكتاب او المجلة بوضوح ، ويقابل ذلك بالعربية التخطيط تحت اسم الكتاب او المجلة . هذا ما لم يفعله الناشر . وربما لم يكن ملوماً بذلك فما تزال الطباعة العربية مقصرة في الجانب التقني لاصدار الكتب .

وكنا نتمنى لو ان الدكتور حسيب اشار الى عدد صفحات كل كتاب، ولو انه ذكر لنا دائماً اسم الناشر أو اشار الى انه ليس ثمة من ذكر لاسم الناشر وهكذا . كذلك كان مفيداً لو قام الكاتب بدراسة « رقمية » ما عن عدد الكتب

والمقالات التي صدرت، ولو انه اعطى لكل مدخل بيبليوغرافي رقماً يسهل الرجوع اليه . ولا بأس ان عدل هذا الرقم في طبعات لاحقة .

وأهم من كل ذلك لم يشر المؤلف الى مصادره ، اي دور الكتب او المصادر المطبوعة التي رجع اليها في تصنيف جداوله . هل استفاد مثلا من القوائم المتخصصة التي تنشرها المكتبات الكبرى في العالم او المجلات المختصة بالشرق الاوسط ؟ هل « شاهد » ما صنف ، ام لم يشاهده كله ؟

على ان ما ذكرته من ملاحظات ومآخذ لا يقصد منها الاقلال من قيمة الكتاب ، فهو كما قلت ضروري لكل من يود دراسة اقتصاديات العراق. ويشكر المؤلف لا على ما قدم من جهد فقط ، بل لسبقه في التأليف في هذا المجال الحيوي العلمي المغفل عموماً حتى الآن في معظم اقطار الوطن العربي .

★ ★ ★

عصر الأمبريالية (*)

غرض وتقديم : هشام الدجتاني

كلمة « امبريالية » شاعت على كل شفة ولسان . ولا عجب ، فنحن نعيش في عصر نعاني فيه من تأثيرات هذه الامبريالية ، ومن شراستها وشرورها . لقد وصف المؤلف الامريـــكي هاري ماغدوف العصر الذي نعيش بصفة « عصر الامبريالية » . وهو في هذا الكتاب يحلل لنا هذه الامبريالية تحليلاً علمياً دقيقاً ويفضح أساليبها وتآمرها . انه يبحث في سياسة التوسع الاستعمارية التي تستعمل كل الوسائل من اجل السيطرة على الشعوب ، فتمضي من المساعدة المالية الى الغزو والاحتلال ، ومن الضغط السياسي الى الحرب .

(*) عصر الامبريالية « Age of Imperialism » تأليف هاري ماغدوف ، ترجمة د . عبد الكريم أحمد ، منشورات وزارة الثقافة — ١٩٧١ .

يقول المؤلف في مقدمة كتابه: «وقد أظهر التحليل للوقائع المتاحة أن هناك توازياً وثيقاً بين سياسة الولايات المتحدة الخارجية العدوانية التي تهدف الى الهيمنة ـ مباشرة أو بطريق غير مباشر ـ على اكبر قدر ممكن من الكرة الارضية من ناحية، والسياسة الدولية التوسعية النشطة للمصالح الاقتصادية الامريكية». من هذا المنطلق يشرع المؤلف في تحليل دوافع الامبريالية بشكل عام. وهو يرفض منذ البداية التجريد او التبسيط او التفسير وحيد الجانب كالتفسير الاقتصادي الخالص. فبلدان مثل بعض بلدان امريكا اللاتينية لا تعطي الاحتكارات الامريكية الا ارباحاً ضئيلة، ومع هذا فهي مهمة في سياسة الولايات المتحدة لأن السيطرة على امريكا اللاتينية امر اساسي في مخططات هذه السياسة. والسيطرة وفرض النفوذ مطلوبان لا لمجرد الحيلولة دون مصادرة رأس المال الامريكي، وتحصين هذا البلد أو ذاك ضد الثورة الاجتماعية فحسب، بل ايضاً لأن لكل من هذه البلاد صوتاً في هيئة الامم يهم الولايات المتحدة في خطتها لضمان هيمنتها العالمية. بهذا التفسير نستطيع ان نفهم أن القتل والتدمير في فيتنام وانفاق مبالغ ضخمة من المال لا يقابله في نظر صانعي سياسة الولايات المتحدة فرص الربح الاقتصادي في فيتنام، بل انه يجب طبقاً لتقديرات القادة العسكريين والسياسيين فيما يتصل بضرورات الهيمنة وفرض النفوذ في آسيا، بهدف الابقاء على المنطقة بأكملها داخل اطار النظام الامبريالي عموماً، وداخل مجال النفوذ الامريكي على وجه الخصوص.

هذا بالطبع وجه واحد من وجوه الامبريالية القبيحة. ان وجه السيطرة السياسية. ثمة وجه آخر أكثر قبحاً هو وجه السيطرة الاقتصادية. انه السمة الجوهرية في الامبريالية الجديدة التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر: الصراع التنافسي بين الامم الصناعية لاحتلال مواقع السيطرة فيما يتصل بالسوق العالمي

والمواد الاولية . فالعداء بين المراكز الصناعية التي تتفاوت في مدى نموها هو المحور الذي تدور حوله عجلة الامبريالية . ومع هذا فإن الصراع بين الدول الصناعية للسيطرة على المناطق المتخلفة اقتصادياً لايمثل الا احدى سمات الامبريالية الجديدة التي تتميز بتنافس حفنة من الشركات العملاقة في كل صناعة .

المؤلف يحاول بأسلوب التحليل العلمي الهادىء أن يبرهن على الصفة الامبريالية للسياسة والاقتصاد الامريكيين . وهو في معرض تأكيده لهذه الصفة يختار نماذج من أقوال بعض المؤلفين الامريكيين الذين يحاولون نفي صفة الامبريالية عن الاقتصاد الامريكي ، ويدحض هذه الاقوال ويبين مغالطاتها .

ثمة علاقة متداخلة كل التداخل بين النشاطات السياسية والاقتصادية والمالية للامبريالية . فالاستثمارات الخارجية والسيطرة على الأسواق ترفع من مقدار النفوذ السياسي ، وبالمقابل فإن للأساليب السياسية المختلفة التي تمارسها الامبريالية (ضغط سياسي او عسكري ، تلويح بالمساعدات ، مساعدات مباشرة او غير مباشرة ، قروض ، تسهيلات بالدفع .. الخ) أهمية كبيرة في ازالة العقبات امام التجارة والاستثمار الخارجيين ، وفتح الأبواب امام المصارف الاجنبية والمؤسسات المالية الأخرى .

وتتميز الامبريالية الحديثة في رأي المؤلف بثلاث سمات رئيسية هي :

١ ـ تحول موطن التركيز الرئيسي من التنافس على تقسيم العالم الى الصراع ضد تقلصات النظام الامبريالي .

٢ ـ الدور الجديد للولايات المتحدة كزعيمة للنظام الامبريالي العالمي .

٣ ـ نشأة التكنولوجيا ذات الطابع الدولي .

والثورة الروسية هي المؤشر لبداية عصر الامبريالية الحديثة . فقبل الحرب

العالمية الثانية كانت السمتان الرئيسيتان للامبريالية هما التوسع الامبريالي، والصراع بين الدول لإعادة توزيع مناطق النفوذ . ولكن بعد الثورة الروسية دخل عنصر جديد هو النزوع الى إعادة السيطرة على هذا الجزء من العالم الذي انفلت من النظام الامبريالي ، والحاجة الى منع مناطق أخرى من الهرب من الشبكة الامبريالية . وازدادت حدة هذا النزوع مع تزايد البلدان الاشتراكية بالطبع .

أما بالنسبة الى دور الولايات المتحدة الجديد ، وهو الدور الذي تجلى بقوة بعد الحرب العالمية الثانية ، فيكفي ان نشير الى تصريح دين راسك وزير خارجية امريكا السابق : «ان الكرة الأرضية قد أصبحت صغيرة جداً ، وعلينا ان نهتم بها كلها، بكل ارضها ومياهها وجوها وما يحيط بها من فضاء» . كما نستطيع ان نتبين ضخامة هذا الدور من أن القوات المسلحة الامريكية كانت في العشرينات تتمركز في ثلاث بلاد خارجية فقط . وإبان الحرب العالمية كانت القوات المسلحة الامريكية موجودة في ٣٩ بلداً ، واليوم في ٦٤ بلداً على الاقل .

ويفصل المؤلف بعد ذلك تفصيلا موثقاً ودقيقاً في عناصر الامبريالية ونشاطاتها العلنية والخفية كالتكالب على أسواق المواد الخام الضرورية لازدهار الصناعة الرأسمالية ، وتصدير رؤوس الأموال الى الدول الصناعية والدول المتخلفة والتكالب على ايجاد اسواق جديدة ومستمرة للبضائع الرأسمالية ، واقامة شبكة مالية ومصرفية هائلة ... الخ

ومن نافلة القول ان الولايات المتحدة هي اكبر دولة مصدرة لرؤوس الاموال والاستثمارات الخارجية في العالم، حتى ان نصيب الولايات من الاستثمارات الخارجية عام ١٩٦٠ كان يقارب ٦٠٪ من مجموع الاستثمارات العالمية . ولاشك

أن هذا النصيب قد استمر في الزيادة منذ عام ١٩٦٠ حتى الآن . وبفضل هـذا التوسع الضخم في الاستثمارات الخارجية أصبحت الولايات المتحدة قادرة على المنافسة في الأسواق الاجنبية مباشرة وليس عن طريق الصادرات وحدها . وليس أدل على ذلك من ان مبيعات الشركات الامريكية العاملة في اوروبا تزيد كثيراً عن صادرات امريكا الى اوروبا . لقد بلغت الاستثمارات الامريكية الخارجية في اوربا الغربية بشكل خاص حداً كبيراً حتى أن البيوت الامريكية تسيطر على أكثر من نصف صناعة السيارات في بريطانيا ، و٤٠٪ من الصناعة البترولية في المانيا ، و ٧٥٪ من صناعة آلات الاحصاء الالكتروني في فرنسا .

واذا انتقلنا الى الشبكة المالية للامبريالية الامريكية فاجأتنا حقيقة مذهلة وهي ان اكبر منـاطق نمو النشاط المصرفي الامريكي اليوم ليست في الولايات المتحدة ولكن خارجها . وهـذا التطور في النشاط المصرفي يبدو التكملة المناسبة للدور الجديد للولايات المتحدة كزعيمة للنظام الامبريالي ومنظمة له .

وهكذا نرى ان الامبريالية الامريكية تمد عدة شباك اخطبوطية في وقت واحد : (١) فهي توسع نطـاق وجودها العسكري والسياسي للولايات المتحدة (عن طريق القواعد والمعونات الاقتصادية والعسكرية والغزو) ، (٢) ورأس المال الامريكي يحتل اليوم المركز المسيطر في اقامة الامبراطوريات الصناعية ، (٣) والجهاز المصرفي الامريكي ينمو ويتضخم بشكل هائل ، [يكفي لاعطاء فكرة عن توسع هذا الجهاز ان الشركات المصرفية الامريكية انشأت في الفترة من ١٩٥٥ — ١٩٦٧ قرابة ١٨٠ فرعاً مصرفياً جديـداً ، موجودة في ٥٥ بلداً مختلفاً]،(٤) والدولار هو اليوم الوسيط الدولي الرئيسي للمدفوعات والائتمان

ما هي الفوائد التي تجنيها الامبريالية الأمريكية أو النظام الامبريالي ككل من برنامج المساعدات الضخم ؟!

هذا البرنامج الضخم قد اعد لتنفيذ عدة أغراض ، منها المساعدة على تنفيذ الأغراض السياسية والعسكرية ، او بمعنى ادق اغراض السيطرة الامبريالية ، ولتحقيق فرص الاستثمار امام دوائر الاعمال الامريكية، ولضمان أن يكون النمو الاقتصادي في البلدان المتخلفة متأصل الجذور في الأساليب والطرق الرأسمالية ، وكذلك لجعل من يتلقون المساعدات معتمدين بصورة متزايدة على الاسواق الامريكية والاسواق الرأسمالية الاخرى .

وتلخص جوان نلسون ، وهي عضو سابق في هيئة تنسيق برامج وكالة التنمية الدولية ، الأغراض العسكرية والسياسية للمساعدات الخارجية بأنها «استمرار تأمين القواعد العسكرية والتسهيلات الاستراتيجية في بعض البلدان النامية المعينة ، والمحافظة على العلاقات مع الحلفاء الرسميين ودعم قدرتهم الدفاعية ... وبصفة عامة تشجيع البلاد النامية على اتباع سياسة خارجية مستقلة او موالية للغرب».

ويقول أحد خبراء المساعدات الخارجية : « . . وإذا أرادت الولايات المتحدة ، او بلاد اخرى من البلاد المانحة للمساعدات ان تمارس نفوذاً على السياسات الداخلية لبلد يتلقى المساعدة، فإن ممثليه يجب ان تكون لديهم فكرة واضحة عما يراد من هذا البلد أن يفعله .. وقد أولت وكالة التنمية الدولية(١) اهتمامها مؤخراً لهذه المشكلة ، وحاولت وضع صيغة لبعض البلاد الرئيسية التي تتلقى المساعدة بما اسمته استراتيجية طويلة المدى للمساعدة . وقد جاءت هذه الصيغة ممثلة لمصلحة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية ، وما يتصل بالأمن في البلد الذي يتعلق الأمر به».

---

(١) احدى الهيئات الرسمية الأمريكية التي تتولى تقديم « المساعدات » الخارجية.

هذا بالنسبة للمساعدات والهبات .. أما عن القروض وتسهيلات الدفع الاخرى فهي ليست الا تكريساً للتبعية الاقتصادية والمالية في البلدان المتخلفة . فتقلبات الطلب على المنتجات الاولية التي تنتجها الدول النامية ، ومن ثم تقلب أسعار تصديرها يخلق عجزاً متكرراً في ميزانها. ويمول هذا العجز بالاقتراض من الدولة الدائنة . ويتطلب رد الدين ، دفع الاقساط والفوائد ، وأن يخصص بالتالي قسم من الصادرات في المستقبل لهذا القرض بدلاً من شراء الواردات التي تدعو الحاجة اليها . ومن ثم يبدأ الاقتراض من جديد لسد ثمن الواردات العادية . وتصير دورة التبعية المالية الاقتصادية هذه أكثر حدة كلما حاول المدين أن يتقدم بالاسلوب الرأسمالي المألوف .

تلك احاطة سريعة بكتابنا القيم « عصر الامبريالية » الذي يعتبر بحق من افضل كتب المكتبة السياسية ـ الاقتصادية التي ظهرت عام ١٩٧١ ، ومن افضل الكتب التي نشرتها وزارة الثقافة .





يجري سحب الاصدار الشعبي الثالث بتاريخ ١٥ شباط ١٩٧٢

اعلان هام

الى السادة المشتركين في مجلة « المعرفة »

قررت ادارة المجلة توزيع هديتها على المشتركين في عام ١٩٧٢ اعتباراً من شهر آذار (مارس) ولغاية شهر حزيران (يونيو) . والهدية هي كتاب من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي في القطر العربي السوري .

وتضع المجلة أمام القراء القائمة التالية ، المؤلفة من عشرة كتب ، ليختار المشترك منها كتاباً نقوم بارساله اليه مـــع العدد القادم . ونرجو تفضل المشترك باعلامنا اختياره بأسرع وقت ممكن ، وبيان العنوان الذي يرغب في ارسال الكتاب الهدية اليه :

- **السيبرنتيك وأصل الاعلام** ، لريمون رويه ، ترجمة الدكتور عادل العوا .
- **الروتين ومعوقات الادارة** ، لعلي الزعيم .
- **الشمس الغاربة** ، (رواية) لأسامو دازاي ، ترجمة فائز بشور .
- **حوار في ليل متأخر** ، (مجموعة قصصية) لمحمد زفزاف .
- **فيرنر هايزنبرغ وميكانيك الكم** ، هيلبر كوفي ، ترجمة وجيه السمان .
- **النهر** ، (مسرحية شعرية غنائية) لسليمان العيسى .
- **الطاقة الشمسية** ، للدكتور مارسيل داغر ، تقديم الدكتور أدم السمان .
- **فيدل كاسترو** ، لناتيز ، ترجمة حافظ الجمالي ، مراجعة عيسى عصفور .
- **الرياح العاصفة** ، (مجموعة شعرية) لممدوح مولود .
- **حذاء أبي القاسم الطنبوري** ، (مسرحية في خمسة فصول) لأوغست ستراندبرغ ، ترجمة جورج سالم

هذه الهدية دعوة للقراء الذين لم يشتركوا بعد في المجلة ، الى المبادرة لتسجيل اشتراكهم فيها وارسال القيمة حوالة بريدية أو مصرفية أو شيكاً على أحد المصارف المعتمدة في دمشق باسم محاسب مجلة المعرفة ، وسيتلقون هديتهم وفق اختيارهم مع أول عـــدد يصلهم . وكذلك الى الذين انتهى اشتراكهم في نهاية عام ١٩٧١ ، للمبادرة الى تجديده ، للحصول على الهدية .

أحمد محمد عطية

مع نجيب محفوظ

رؤية لأدب هذا الكاتب العربي

منشورات وزارة الثقافة - دمشق - سعر النسخة ٢٠٠ ق.س.ل.